غُصْنُ زَيتونٍ مُخْضَلٌ

رقم الإيداع	978-625-8279-60-3
اسم الكتاب	غُصْنُ زَيْتُونٍ مُخْضَلٌّ
اسم المؤلف	مُحَمَّد ظِلال الْمُعَلِّم
اسم المحرر	أُسَامة بن مُحَمَّد طاهِر سحَّاري
الطبعة	الأولى
دار النشر	زقاق الكتب للنشر والتوزيع

+ 90 553 915 40 09
facebook.com/zuqak
Fatih - Istanbul - Turkey
www.zuqak.com

copyright © 2023

زقاق الكتب للنشر والتوزيع - إسطنبول - تركيا 2023
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأي وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أو الالكترونية أو الميكانيكية بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها - دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

غُصْنُ زَيتونٍ مُخْضَلٌ

تأليف

مُحَمَّد ظِلال المُعَلِّم

تحرير

أُسَامَة بن مُحَمَّد طَاهِر سَحَّاري

رُقَاقُ الكُتُب

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [سورة يوسف: ١١٠]

الإهداء

إلى روح أبي الغالي حالمـًا بالخلاص

إلى أمي وزوجتي وولـدي وابنتي، وأزواجهم

إلى أَخَـوَيَّ وأختي، وأولادهم

إلى أحفادي الذين أرجـو لهم مستقبلاً أفضل

إلى كلِّ من وقف في وجه طاغية الشام

إلى كلِّ شهيدٍ روى بدمه طريق الحرية لأجيالنا القادمة

إلى كلِّ شريد في المربى والمنفى والشتات

أُهدي كتابي

مقدمة المؤلف

لطالما كانت ملهمةً لكل رهيف: أحياؤها وأزقتها، زيتونها وتينها، عنبها وكرزها. إدلب تلك الضاربة عمقاً في أصالتها وآثارها، مدينةً وريفاً. ولدت في أحضانها، وأحببتها كما أحببت والدي. آهٍ يا منبت الأحرار!

أما في نصف القرن المنصرم، فقد حاولوا عزلها أو تحييدها عن الحياة الاجتماعية والسياسية في سورية. وبعد أن سمعت من أبي ومن أقاربي ومن أهل بلدي، وقرأت أكثر وأكثر، عرفت لماذا أهملها نظام أسد أباً وولداً، فتاريخها في مقارعة الظالمين لا يُنْكِرُه أحد، وهذا ما كان يخيف نظام أسد وأذنابه.

من مِنَّا ينسى إبراهيم هنانو وثورته العظيمة ضد الفرنسيين، تلك الثورة التي أعطت أذنابهم أسد وأعوانَه درساً بأن هذه المحافظة صعبة المراس. لذا حينما زار حافظ أسد إدلب رمَوْه بالأحذية المهترئة والطماطم الفاسدة. وحين اشتعل فتيل الثورة عام ٢٠١١م كان أهل إدلب -مدينة وريفاً- من أوائل من لبى النداء وهتف كرمى للحرية

والكرامة.

وقد حاولت في كتابي هذا توثيق أهم الأحداث التي عايشتها، وعايشها آخرون، في بداية الثورة السورية المجيدة، ثورة الحرية والكرامة.

أرجو حقاً أن يكون الكتاب وفاءً لمن قدموا في سبيل الحق أرواحهم وأموالهم، كذلك أرجو أن يكون تذكرة للأجيال القادمة. والحمد الله أولاً وآخراً.

❊ ❊ ❊

لا صَوتَ يعلو صَوتَ هُبَل

كثيراً ما تجعلنا الأيام نرجع بذاكرتنا للوراء، وكثيراً ما يضطرُّنا التقدّم بالعمر أن نحاسب أنفسنا، وأن نبحث عن موطئ قدمنا!

وفي كلِّ مرحلة من مراحل عمرنا هناك أحداث تترك أثرها على جدار الروح، فترافقنا أبداً.

ودائماً ما أنعي نفسي أني أعيش في زمنٍ ذَلَّ فيه الإنسان، وأنَّ عمري ضاع بين أقدام الأوغاد ممن تسلَّطوا على رقابنا.

قد أعيش ما قدَّر الله من بقيّة عمرٍ في حرِّية وكرامة، ولكن حتى لو امتدَّ بي العمر فلن تستطيعَ الأيامُ الباقيات أن تعوِّضني من طفولتي وشبابي، أحلى أيام عمري. لقد فقد فيها متعة ذلك الزمن، وفقدتُ الفرحة والابتسامة الحقيقية.

إن مَن عاش وكبر في ظل نظام «حافظ الأسد» وحزبه، لم يعرف الكرامة، ولم يذُق إلا مرارة الحقد والكره والقتل. لقد قتلوا الإنسان، والإنسان هو الحقيقة الوحيدة الراسخة على ظهر الأرض، ووطن الإنسان حيث يجد كرامته وحيث

يجد إنسانيته.

❊ ❊ ❊

صحيح أنّي لم أبلغ العاشرة من عمري بعد، ولكنّي أدركُ إلى أيّ مدى بلغ حزن أبي وقهره من كلّ ما يراه، حيث يشاهد الواقع المؤلم يومياً في كلّ مكان يذهب إليه.

كان يخرج من البيت لقضاء حوائجنا، ثمَّ يرجع هارباً من الناس في كثير من الأحيان، فيدخل البيت ويغلق الباب خلفه لاعناً كلَّ من يحبُّ «حافظ أسد»، وكلّ من يسبّح بحمده.

وكم كنت أسمعه يتكلم عن المنافقين لهذا النظام بكلّ احتقار. كان أبي يخلو بنفسه وكتبه وأشعاره عن الجميع، لقد كَرِهَ تلوّن الناس ونفاقهم، وأحبَّ غرفته.

كانت لديه شعلة أمل لا تذوي، ففي صباح كلِّ يوم ينتظر خبراً مفرحاً بانقلابٍ على نظام حكم آل أسد، لذا كان يداوم سماعَ إذاعة «**مونت كارلو**»[1] التي تبث برامجها من فرنسا، بصفتها الوسيلة الوحيدة التي تقدِّم الأخبار بشيءٍ من الحيادية، -حسب ما نظن-، بعيداً عن رقابة النظام، إذ لم

(١) كانت هذه الإذاعة ذات انتشار واسع في سوريا، بخلاف إذاعة بي بي سي التي لم يكن لها الذيوع والانتشار نفسه.

يكن في ذلك الزمان على التلفزة إلا قناة أسد الرسمية، وبعض القنوات التركية التي كان بثُّها يصل إلى مدينتي «إدلب» لقربها من الحدود التركيّة.

وكم كان يطمح ويطمع -رحمه الله- أن يكون أوَّل من يسمع بهروب الطاغية أو مقتله، كان يرى في أحلامه بشكلٍ مستمرٍّ أنّ جزَّار حماة -حافظ أسد- قد قُتل أو سُحِل في الشوارع.

وكان يصوغُ شعراً[1] عن طغيان حزب البعث، ويحفظه في داخله، راجياً ومتأملاً أن يأتي أوانٌ يستطيع فيه الجهر بهذا الشعر وإلقاءه على عامة الناس، ولذا كان يحفظه في سرِّه خوفاً من أن تسمع به الجدران التي لها آذان، إذ إن كلَّ جدارٍ في بلاد البعث له آذان لأروقة المخابرات[2].

كان والدي مُرهف الحسِّ شاعراً مقتدراً، حاول رجال النظام أن يستميلوه إلى صفِّهم، لكنَّه أبى ورفض الوقوف مع

(١) ومن ذلك قوله:

فإذا الطغاة تنكّست أعلامهم ... مِزقاً وجمع الظالمين تبعثرا
الله أكبر لم تذر من مارِدٍ ... إلا استكان ولم تدع متجبرا

(٢) أشاع نظام أسد بأن كلّ أحدٍ مراقب، فبات الصديق يشك في صديقة والأخ في أخيه.

ظالـم دكتاتـور طائفـيّ، وانكفـأ علـى نفسـه ليبقـى حبيـس داره، وتـرك الأرض بمـا رحبت لهم.

وفي عـام ١٩٨٠م ثـار جـزء مـن النـاس بانتفاضـةٍ -سُـميت يومئـذ باسـم ثـورة الإخـوان المسـلمين- كنـتُ حينهـا قـد بلغـت الثالثـة عشـرة مـن العمـر، ولـي أخـت هـي أكبرنـا، وأخَـوَان يكبرني أحدهما بعام، والآخر بعامين.

وفي أحـد تلك الأيـام طـرق بابَنـا أحـد أولاد الجيـران، وأخبرنـا بأنـه بعـد صـلاة الجمعـة مـن يـوم الغـدِ سـتخرج مظاهـرة ضـد نظـام الطاغيـة، كمـا يحصـل في بعـض محافظـات سـوريا ومناطقهـا. امتـلأت وجوهنـا بالبُشـرى عنـد سـماع الخـبر، فغـداً سـنحطِّم الجـدارَ الماثـل أمامنـا، لنخـرج إلـى رحـاب الدنيـا، ونـذوق طعـم الكرامـة، غـداً سـندكُّ قصـر المجـرم مـن مدينتـا « إدلـب» المدينة الهادئة الصغيرة.

ولـم أسـتطع النـوم ليلتَهـا، وأنـا أفكـر بالقليـلٍ مـن الخـوف، وبالكثير من البهجة والسرور.

❊ ❊ ❊

أكتـب لكـم، وفي داخلـي بـركان مـن مشـاعر مختلطـة تغلـي،

فأنا أتذكر كيف علمنا نظام أسد، لقد كانت حالنا في نظام حزب البعث كالمثل: «**نمشي الحيط الحيط، ونقول: يا رب الستر**».

كنَّا نخافُ في مدارسنا من المعلِّم، والمدير، ومدرّب الفتوَّة[1] وأمين المكتبة، ونخاف حتى من البوّاب، ونخشى أن نمشي ورؤوسنا مرفوعة. وكم كنَّا نتكلّم بصوتٍ خافتٍ خوفًا من أن يسمعنا الجدار، ونركض على رؤوس أصابعنا حتى لانزعج أفرع الأمن، تلك التي كنَّا نبتعدُ عن جدرانها خوفًا من حُرَّاسِها. وكنا نخاف من كلّ مَن يتكلَّمُ بلهجةِ المناطق الجبلية في منطقة الساحلِ، ونحاول أن نطلب رضاه.

كنا نكْذِب في حياتنا على الناس، بل ونكذب على أنفسنا، ونكاد نكذِّب بعقيدتنا. نحن أجيالٌ تربَّت على النفاق، وتأليه القائد الأوحَد الملهَم، نحن الذين سلّمت رقابنا لثلَّةٍ من الأوباش بائعي الأوطان، حكموا بالحديد والنار.

* * *

أعود إلى الدعوة للمظاهرة في ذلك الوقت، وعلى صِغَرِ

(١) مدرب الفتوة، هو مدرس مادة التربية العسكرية التي أجبر نظام الأسد طلاب المدارس تعلمها كجزء من عسكرة الشعب وترويضه.

سنّي، فقد ظننتُ بهذه الدعوة أنَّنا أمسكنا المستقبل وقهرنا المستحيل، وأنّ إسقاط النظام بات قاب قوسين أو أدنى، وأنَّنا لن نعيش بعد اليوم بالهمّ والحزن الذي كنّا نراه في حالِ أبي وجيله.

ومرّت ساعات الليل بطيئةً من طول الانتظار، شعرنا بها ونحن ننتظر انقضاء الليل وكأن على ظهورنا أحمالاً كالجبال. ومع بزوغ الفجر نهضتُ أُلاحِقُ الزمن وكأنَّه هرب منّي، وبقيتُ أنتظر صلاة الجمعة بفارغ الصبر. وقبل أن يحين الموعد المنتظر ذهبت وإخوتي إلى مسجد الفرقان[1] القريب من حينا، وهو المسجد الذي اتفقت الجموع على الصلاة فيه، والخروج منه بالمظاهرة.

حين وصلنا المسجد وجدنا على بابه سيارة شرطة، كانت تسبقنا تحسّباً للمظاهرة التي علم بها النظام. وكان الوضع هادئاً قبيل الصلاة، ولكن المسجد بساحاته وباحاته كان ممتلئاً عن آخره بالمصلين. ومع انتهاء الصلاة وقف الأستاذ أبو عبد الله[2] قرة محمد -أحد المعارضين للنظام- أمام

(١) يتوسط المدينة نحو الغرب قليلًا. بني عام ١٩٧٥م من تبرعات أهل الخير.
(٢) وهو هاشم قره محمد مدرس التربية الإسلامية، هرب إلى المملكة العربية السعودية إبان ثورة الثمانينات. عمل مدرّساً هناك وتوفي سنة ٢٠١٥م. يشار إلى

ساحة المسجد وقرأ بياناً مطبوعاً، وحين انتهى من بيانه ارتفع صوتٌ جَهْوَريٌّ بنداء: «**الله أكبر**»، فردَّدَ الجميع خلفه، وتعالت الصيحات بالتكبير والاحتجاج.

كان الحشد كبيراً، والتكبير يبلغ عَنان السماء، وشكّل المحتشدون بالتكبير والهتاف مظاهرة ضخمة تنادي بإسقاط النظام ومحاكمة رئيسه «حافظ أسد».

لم يخرج الجميع في المظاهرة، فالبعض انفضُّوا عن حشد المتظاهرين، وهرعوا إلى بيوتهم خوفاً من النظام. جميعنا يعرف أنَّ هذا المجرم -حافظ أسد- وحشٌ لا يرعى في الناس إلًّا ولا ذِمَّة، ولا يخشى الله -هذا إن كان يعترف بوجود الله أصلاً!

وبالهتافات والتكبير وصيحات العزّ والكرامة سار المتظاهرون نحو دوار المحراب[1]، وهناك اعترضهم رجال الشرطة وأطلقوا النار عليهم، ولكن الحشد لم يتوقف،

أن ولده اعتقل في ثورة الثمانينات!

(١) دوار المحراب: ميدان كبير يقع في المدخل الشرقي لمدينة إدلب، حيث الطريق الواصلة بين إدلب وحلب. ويعرف هذا الطريق بـ «طريق حلب القديم». وتنتشر على طول الطريق قرى وبلدات، مثل: بنش، وطعوم وتفتناز وشلخ ومعارة النعسان ...

والصيحات لم تهدأ، والرجال لم يهابوا الرصاص، ولم يزدهم الهجوم عليهم إلا قوّةً، فردّوا على الهجوم بهجوم.

وفَرّ رجال الشرطة لا يلوون على شيء، تاركين سيارتهم خلفهم، فأضرم المتظاهرون النيران فيها، لتكون دليلاً على جولة للحقّ ينتصر فيها على الباطل ورجاله.

❊ ❊ ❊

مدينة إدلب

«**إدلب**» مدينة صغيرة تقع شمال غرب سوريا، وتسمى «**إدلب الخضراء**» لخصوبة تربتها وكثرة أشجار الزيتون فيها.

«إدلب» مدينتي النائمة بين أشجار الزيتون، أبَتِ الذُّلَّ والخضوع للظالم يومًا. وقد سجّل لها التاريخ أنها ضربت وجه حافظ في زيارته لها بالأحذية والطماطم الفاسدة[1]، وبقيت علامات الأحذية على وجهه ووجه أبنائه وطائفته إلى يومنا هذا، ويحفظ أهل إدلب هذا اليوم ويذكرونه بفخر.

رغم أن الطاغية انتقم من مدينتهم شرّ انتقام حين تمكّن وتجذّر في كرسي الحكم، فقد أبعد خط السكة الحديدية عن المدينة ثمانية كيلو مترات ليحرم «إدلب» الاستفادة من الخطّ الحديدي، وشقّ الطريق الدولي الحيوي الذي يصل مدينة «حلب» بالساحل وبالعاصمة «دمشق» بعيداً عن «إدلب» سبعة عشر كيلو متر، وهمَّش مبدعيها، وجعلها نائية

(١) كان ذلك في مطلع عام ١٩٧١م بعد انقلاب حافظ على رفاقه وأخذ الحكم بالقوة العسكرية سنة ١٩٧٠م

فقيرة خارج اهتمام الحكومة. لا صوت لها ولاحسّ، إلا من أفرع المخابرات، وكتيبة حزب البعث المكونة من الشراذم وسَقَطِ المتاع من الذين اشْتَهَروا بالفجور وقلة الحياء. فالبعثيون[1] نَكِرات المجتمع، اجتباهم حزب البعث ليكونوا يده الضاربة ضد أهلهم وأبناء مدينتهم، ولذا استخدمهم لحماية مقارّه الأمنية و الحزبية حين خرجت المظاهرة[2].

حين خرج المتظاهرون، يصدحون بالتكبير والهتاف، وقف حُثالة حزب البعث يراقبون المظاهرة من بعيد، ليحفظوا وجوه المشاركين فيها، وقد توزعوا حول مقارّ حزب البعث والشوارع الرئيسة المؤدية إليها لحمايتها.

وعندما علا صوت الرصاص وكَثُرَ إطلاق النار على المتظاهرين، أصيب بعض المتظاهرين ممن كان بجانبي، فركضت خائفاً من الرصاص الذي يسقط كالمطر، ورجعت إلى البيت أنا وأحد أخَوَيَّ، بينما بقي أخي الكبير في المظاهرة حتى النهاية.

(١) الاسم المنسوب إلى حزب البعث، وهو الذي حكم سوريا منذ ١٩٦٣م.
(٢) استخدم حافظ أسد ونظام حزب البعث هؤلاء المنتسبين للحزب في حماية المقار الحزبية، ومراقبة الناس دائماً. وقد أصبح حب هؤلاء للنظام أكثر من حبهم لأهلهم وعشيرتهم وبلدهم!

ما بعد المظاهرة

ومع أفول شمس ذلك اليوم عاد الجميع إلى بيوتهم، بعد مظاهرة حاشدة انتهت بعدد من المعتقلين وعدد من المصابين والشهداء. ولم يفلّ ذلك من عزيمتنا، فقد حطَّمنا جزءاً من آلهة حزب البعث ونظامه الطائفي العفن. وسوف نُري جموع الظالمين من نحن حين نصل إلى رأس النظام، وندخل قصر أسد بأقدامنا الصغيرة، ونرمي مفاتيحه، حتى لا يتمكّن مستبد أو ظالم أو حقير من إقفال أبوابه في وجوه الناس أبداً.

نعم! نحن أطفال المدينة أو ناشِئَتها -إن شئت-، ولكن أحلامنا كانت أكبر منّا، كنا نحلم أن نعيش عيشة الكبار، وأن نرى وطننا بخير، ونتربَّع على عرش الكرامة، وندوس الطغاة بأحذيتنا، ونرفع علم بلدنا عالياً خفاقاً، وأن نحتضن تراب وطننا ونقبّله بكلّ صدق، وأن نفتخر بوطن لم نشعر به بعد. وكانت ذروة أمانينا أن نحرِّرَ «**القدس**» من دَنَسِ الطغاة المحتلين، وأن نصلي في المسجد الأقصى وقد حررناه بسواعدنا ودمائنا من غاصبيه.

نعم هذا ما كنا نتمناه، ولكن تمشي الأقدار بخلاف الأمنيَّات، فبعد أيامٍ قليلة من المظاهرة، كشف النظام عن وجهه الحقيقي القبيح، وكشّر عن أنيابه، فاستيقظت «**إدلب**» على مداهمات لبيوتها الآمنة، واقتحامٍ تقوم به أجهزة المخابرات في الأزقة والأحياء بالتعاون مع مخبرين ملثمين من بني جلدتنا، بحثاً عن المشاركين في المظاهرة. لقد قاموا باعتقال الرجال والفتيان، ودخلوا البيوت في تفتيش وصل إلى سِجِلَّات الهواتف والصور العائلية، فإن وجدوا في البيت صلةً بين أحد أفراده وبين أحد المطلوبين اعتقلوا مَنْ في البيت مِن شباب ورجال، ولو كان الرابط بينهما صورة تجمعهما، أو أنهم عثروا على اسمه في سجل الهاتف. وقد يصل الأمر إلى اعتقال الشخص بتهمة الانتماء لجماعة الإخوان المسلمين[1].

❋ ❋ ❋

(١) أشاع حافظ أسد ونظامه أن جماعة الإخوان المسلمين جماعة إرهابية، ونسب إليها عدداً من التفجيرات، نفذتها في الحقيقة أجهزة المخابرات في نظامه. والأدهى أنه أجبر التلاميذ في المدارس على ترديد شعار صباحي، يقولون فيه: عهدنا أن نسحق عصابة الإخوان المسلمين العميلة. فتأمل!

حين يعلو صوت البعث

وشيئًا فشيئًا كمّمت الأفواه تمامًا، وخُطف الرجال من الشوارع، وسيق الشباب إلى المعتقلات، لينتهي المطاف بكلّ هؤلاء في سجن «تدمر» الصحراوي، بمحاكمة ميدانية شكليّة، فلا قضاءٌ ولا محامٍ، أما أهل المعتقل فلا يعرف واحدهم عن مصير ولده شيئًا، والتهمة الوحيدة هي «الانتماء لجماعة الإخوان المسلمين».

لم يقبل الطاغية أسد أن يكون تجريم المنتمي لجماعة الإخوان قانونًا فحسب، بل جعله مادة من مواد الدستور السوري، وأن عقوبة المنتمي إلى تلك الجماعة الإعدام، وذلك لشدة حقده على كل ما هو مسلم في هذا البلد. فهذا القانون يتيح له أن يعتقل كلّ شيخ وكلّ عالم وكلّ داعية بمجرد أن يرميه بتهمة الانتماء للإخوان[1].

كان أثر محاربة المتدينين في سوريا كارثيًا، فقد فرغت المساجد من المصلين، ورُفع ذكر الله من الشوارع، واستُبدل بمسبّة الله والدين، وسُجِن كلّ من يسبِّح باسم الله وبقي من

(١) على إثر ذلك فرّ كثير من طلبة العلم والعلماء خارج البلد.

يسبّح بحمد أسد. كما سُرِّح الموظفون الشرفاء، وبقي الفاسدون المرتشون، واختلط الحابل بالنابل، وأصبحت الفوضى المنظّمة شعار الدولة، حيث تتفشّى الرشاوي والمحسوبيات. ونشط المنتسبون لحزب البعث لينشروا الرذيلة[1] في المدارس بين الشباب والبنات، وفي مخيمات الطلائع والشبيبة. وتغلغل الفكر الشيوعيّ والاشتراكيّ في المجتمع على نحو ممنهج مدروس.

ويعلو صوت حزب البعث فوق بقية الأصوات في البلد، وتعلو رجالات البعث بينما يهان أشراف المدينة وأعيانها، وترتفع هامات الأقزام والتافهين ويصمت أهل العلم والفضل، ويمسك الفاسدون بمفاصل البلد ومؤسساتها المختلفة، وتبدأ مرحلة جديدة من المعاناة والخوف والفقر. أضِف إلى ذلك نقصاً في المواد الغذائيّة.

لقد ابتكر نظام البعث فكرة خبيثة كي يصمت الناس، فأوهمهم أنهم شعب المقاومة والتحرير، وأن هذا النظام يقارع الاحتلال. وعلينا جميعاً أن نقف مع الأب[2] القائد

(١) من ذلك تنظيم المعسكرات المختلطة، وتطبيق نظام التعليم المختلط...
(٢) كذلك يحلو لكل نظام دكتاتوري أن يلقب الطاغية الحاكم بلقب الأب!

باني سورية الحديثة -كما يصفه إعلام النظام- في حربه (المزعومة) ضد الإمبريالية والصهيونية والرجعية والعملاء وإسرائيل، ولو أفقرَنا وجوّعَنا وملأ السجون بأبنائنا.

ولم يكتفِ النظام بهذا النوع من الممارسات ضد الشعب، فقد أدخل إلى المجتمع نوعاً آخر من الفساد متمثلاً بمدرِّسَات[1] مرتبطات بأحد أفرع المخابرات، يقدمن لهم الخدمات، ويسهلنَ لهم الدعارة. ومن كان لهن مثل هذا السلوك الشاذ قلائل ومعروفات في المدينة، وفي المناطق المجاورة كذلك[2].

وفي الثمانينيات قامت تلك المدرِّسات بنزع الحجاب[3] عن الفتيات عَنوة في الطرقات والمدارس دون خجل أو مراعاةٍ للعادات والتقاليد، أو لقيم المجتمع المسلم المحافظ في سوريا.

(١) أكثر هؤلاء المدرسات مرتبطات بفرع الأمن العسكري، يساعدن الطلبة ذوي الصلة بأفرع المخابرات عن طريق منحهم درجات غير مستحقة!

(٢) ومن ذلك أنّ امرأة تسمى «رويدة» عندها بيت دعارةٍ تابع للأمن العسكريّ، يعرفها القاصي والداني. ولقد أصبحت مضرب مثل، فإلى الآن مازال هذا الاسم يُتداول عندما يريد البعض أن يصف موقفاً أو عملاً سيئًا.

(٣) حدث ذلك في إدلب كما حدث في عدة مناطق في سوريا ولا سميا في دمشق.

هذا هو الحال الذي كانت عليه «إدلب» -وسوريا كلها- أيّام حكم أسد الأب.

* * *

الاعتقال

وعند الحديث عن جرائم نظام أسد، لابدَّ أن نعرّج على مسألة الاعتقال، وحبس الناس دون تهمة، ولم يكن النظام يفرّق بين كبير وصغير. الكثير من معارفي -وأنا الطفل الذي لم يتجاوز الثلاثة عشر عاماً- اعتقلوا من بيوتهم ومدارسهم، ولم نعد نعلم عنهم شيئاً بعد ذلك.

في حارتنا اعتقلوا شاباً يكبُرني بسنتين، ولكم أن تتخيلوا حال أمه التي بقيت أكثر من ثلاثين عاماً تنام في الحجرة الأقرب إلى باب الدار، على أمل أن تفتَح له باب البيت إذا ما عاد! ولكن الأم بعد السنين الطويلة تلك، ماتت ولم يعد ابنها حتى اليوم.

لقد كان معتقلاً في «**سجن تدمر**»، هناك حيث أعدم «**رفعت أسد**» آلافاً من المعتقلين العزّل[1] رمياً بالرصاص في

(١) أشارت عدة مؤلفات كتبت عن سجن تدمر هول الكارثة فيه، وأنواع العذاب والظلم الذي يتعرض له السجناء. من أشهر تلك المؤلفات رواية «القوقعة- يوميات متلصص» لمصطفى خليفة، ٢٠٠٨م. دار الآداب للنشر والتوزيع. ومن تلك المؤلفات كذلك « تدمر شاهد ومشهود- مذكرات معتقل في سجون الأسد» لمحمد سليم حماد، ٢٠١٧م، مركز الدراسات السورية.

زنازينهم دون محاكمة، وكان من بينهم الكثير ممن اعتُقِلوا بالشُبهة، إذ لا علاقة لهم بجماعة الإخوان المسلمين، ولا حتى بالمظاهرات أو الاحتجاجات.

❊ ❊ ❊

البطل الصغير

كان أبي يرسلني راكبًا الدراجة إلى مكتبة قريبنا ابن «**الشيخ حكمت معلم**[1]» رحمهم الله، وهو شيخ موثوق به في إدلب ومناطقها، ذو مكانة ورأي لدى أهلها. فكنت أذهب لأشتري أشرطة «الكاسيت»، ونشرات «**جريدة الإخوان**» الأسبوعية، وذلك لنعرف ما يجري على الأرض السورية، ونساير الحدث، وننتظر الفرج. ففي الخفاء والسرّ شباب نذروا أنفسهم للدفاع عنا، وتخليص الشعب من سطوة النظام، فكيف لنا أن نتركهم وكيف لنا ألا نؤيدهم؟!

كنت في غاية السعادة حين أعلم أنني مُرسَلٌ بمهمة خطرة، وهي حَمْل المنشورات وأشرطة «الكاسيت» الممنوعة، فأسرّبها من المكتبة إلى البيت. لقد كنت أحتضنها وأخبئها خوفًا من عينٍ تنظر إليّ، وخوفًا من الْمُخبرين وأزلام

(١) هو عالم ومربٍّ وأديب ذوّاقة ١٩٢٢م-٢٠٠٢م، رئيس جمعية النهضة الإسلامية في إدلب. يعدّ الشيخ حكمت رائد الدعوة والحركة الإسلامية خلفًا للشيخ نافع الشامي -رحمة الله عليهما-.لمزيد من معلومات عن الشيخ حكمت راجع موقع: رابطة علماء الشام https://2u.pw/wqMAdJ. أما ابنه فاسمه رفعت، وكان يبلغ من العمر وقتها ٢٤ سنة. اعتُقل ابنه منذ أربعين عامًا ولم يكشف عن مصيره حتى الآن.

النظام، بل خوفًا من أن تكون الأشجار أو الجدران تراقبني.

لقد كان يخيّل إليّ أنَّ كلَّ مَنْ في الشارع يعرفون هذا البطل الصغير الذي يحمل بين يديه عزَّةَ الوطن، وخلاصه من سلطةٍ حاكمةٍ، جعلت أيامنا وأحلامنا سوداء حالكة كظلام الليل.

ولقد احتفظنا بهذه المنشورات والأشرطة إلى يوم المظاهرة تلك، إذ تلتها حملات الاعتقال ومداهمة البيوت، والتفتيش الدقيق، فكان كلّ واحد منا يَعُدّ نفسه مُعْتَقَلاً في كلِّ لحظة، لذا جمعنا كلّ ما في البيت من منشورات وأشرطة وكتب دينية ممنوعة، ومنها كتب ابن تيمية على وجه الخصوص، إضافة إلى بعض القصائد الشعرية التي كتبها أبي سراً، جمعنا كلَّ ذلك وحفرنا حُفْرة كبيرة في حديقة البيت، ودفنّاها تحت التراب، وكأننا ندفن قطعة من جسدنا، وبقيت تحت التراب فترة طويلة جداً، ولم نفتحها إلا بعد سنوات وقد أصابها العفن والرطوبة.

لم أفهم يومها لماذا لم نستطع - ونحن الشعب المقهور المكلوم- أن نُرجع الحكم للشعب، لم أفهم كيف لنا أن نسكت على الضيم، ولم أعرف لماذا يبكي الرجال رغم

أنهم رجال، سألت كثيراً واستنكرت في تلك الأيام، ولكن أبي أسكتني، وأمي صرخت في وجهي وأجلسوني أنا وإخوتي في البيت بجوارهم.

يمرّ اليوم تلو اليوم والأسبوع تلو الأسبوع، بل يمر فصل كامل ولا نكاد نخرج من بيتنا حتى إلى صلاة الجمعة، التي لم يعد يحضرها إلا كبار السن، وكنا في كثيرٍ من الأحيان نصليها في البيت، وذلك خوفًا من مخبري النظام وأزلامه.

انقطعنا عن عالمنا الخارجي، فكلّ شيء أصبح مخيفًا، وكلّ ما في الخارج يوحي أنَّ الموت والقتل والسجن يمكن أن يحدث في كلِّ لحظة لأحدنا ودون سبب، فكان يُقال لنا دائمًا: لا تثقوا بأحد، ولا تفتحوا أفواهكم أمام أحد، احذروا الجيران والأصدقاء والخلّان، امشوا في طريقكم ولا تلتفتوا يمنةً ويسرةً، لا تتأخروا في المدرسة، لا تلعبوا في الشارع. أصبحنا نخاف بوّاب المدرسة، كما نخاف مديرها، أصبحت مدارسنا كالمعتقلات، فالكلُّ تابع لأجهزة المخابرات رضي أم لم يرضَ. لكم أن تتخيلوا كيف أنَّ النظرة في بلادي أصبحت محسوبة، والكلمة لها ألف معنى، والخطوة منظورة، وكل أمرٍ أصبح بيد النظام أو أزلامه.

لقد وصل الأمر بهم أن جندوا الطلاب ليكونوا ضد رفاقهم، فأقاموا دورات لمن يرغب أن يكون مِظَلِّيًّا مُقابل امتيازات كبيرة تمنح له دون البقية. وبذلك جندوا فئة من الطلاب الذين سموا بالمظليين، وسلّحوهم بالمسدسات الحربية، ومنحوهم علامات تخولهم دخول الكليات العليا.

لقد كانوا يدخلون المدرسة، يركلون هذا ويصفعون ذاك، يسبّون ويشتمون، فلا يجرؤ أحد على الوقوف في وجههم، فهم جنود أسد، وهم شبيحة النظام وساعده الأيمن، فمن يستطيع أن يمنعهم من أن يغشوا في الامتحانات؟! ومن يستطيع أن يمنعهم من النجاح دون دراسة، وأن ينالوا أعلى الدرجات؟! ومن يستطيع أن يمنعهم من دخول الكليات التي يريدون؟!

لقد سوّدهم النظام على الناس، ومنحهم الامتيازات، وجعل لهم حظوة، رغم أنهم أوباش البشر وحثالته. ولكن من بيده القوّة هو من يصنع القانون، وهو من يضع الشروط. وإني لأُومن بأن للباطل جولةً، ولابد للحق أن يعود وأن يسود مهما طال الزمن.

الجدران لها آذان

تعلَّمنا من أهلنا أنَّ «**الجدران لها آذان**»، وأنَّ الشوارع تسمع صوت نِعالِنا، وأنَّ رجال الأمن يعدُّون علينا أنفاسَنا، وأن مخابرات أسد تعلم ماذا نأكل في بيوتنا، وكم ندّخر في جيوبنا. وكنا عندما نسير جوار أحد مباني الأمن أو الاستخبارات نبتعد عن جدرانه، ونخاف أن نشخص ببصرنا نحوه، وإذا حدث وانادانا الحارس هَرْوَلنا مذعنين له. صحيحٌ أنه ليس إلا جنديّـًا، ولكنا كنا نهابه لأنه ومن وراءه ملؤوا نفوسنا خوفـًا وذعراً. وقد يظن بعض القرّاء أني أبالغ، فليعذروني، إذ ليس من رأى كمن سمع، وليس من جرَّب الخوف والرعب والتعذيب كمن قرأ.

* * *

بحتري العرب

كان أبي رحمه الله معلِّماً مُرَبِّياً وأديباً شاعراً، حاصلاً على إجازةٍ في اللغة العربيَّة، وله مجموعة من الأشعار، كان ينظِمُها بقلمه. ولقد أردت بعد وفاته أن أطبع له شيئاً من شِعرِه، ذلك بعد أن ألَّف ديواناً وأسماه «**تحت ظلال الوحي**[1]»، وكان قد طبعه على حسابه، إذ لم تساعد الجهات الرسميّة في نشره ضمن مشروع دعم الدولة للشعراء ونشر دواوينهم، وذلك لأنه ليس من رجالاتهم، ولا من البعثيين، ولا من الوصوليين والمتسلقين، ولا من المتملِّقين والمنافقين، بل كان شعره صافياً صادقاً خالصاً، لم يمالئ فيه ظالماً، ولم يمدح فيه حاكماً.

حاولت أن أطبع له المجموعة الشعرية الأُخْرى، فاتصلت برئيس فرع اتحاد الكتاب العرب في «إدلب» آنذاك، وهو «عبد القادر أسود[2]»، وأخذت موعداً منه رجاءَ أن يساعدني في نشر ديوان الشعر هذا. رحّب الرجل بحماسة، وقال لي:

(١) طبع الشاعرُ هذا الديوان على حسابه سنة ١٩٨٠م.
(٢) ولد في بلدة أرمناز بمحافظة إدلب سنة ١٩٤٨م، وله عدد من المؤلفات. راجع: الموسوعة الحرة.

أبوك أستاذنا وله حقٌّ علينا. سأذهب إلى دمشق بعد يومين، وسأعرض الأمر على «علي عقلة عرسان[1]» رئيس اتحاد الكتّاب العرب. وأردف الرجل بأن عرسان سيرحِّب، وسيدعم نشر الديوان.

وبعد ثلاثة أيام رن الهاتف وكان المتصل «عبد القادر أسود»، دعاني إلى مكتبه القريب فذهبت إليه مباشرة، فلما حضرت، قال لي متأسِّفًا: إنَّه متفاجئ من رفض رئيس اتحاد الكتاب العرب «علي عقلة عرسان» أن ينشر شيئًا للشاعر «محمد بديع المعلم».

لم أستسلم أمام هذا الموقف السَّيِّئ من رئيس اتحاد الكتاب العرب، فقلت له وبكلّ ثقة: سأنشر الديوان ولو على حسابي، فأجاب: سأساعدك بأن أضعه في المراكز الثقافية. شكرت الرجل وخرجت وكلّي حقد على نظام الطاغية أسد الذي وصل الفساد به إلى هذا الحال من تهميش الشعراء وتصدير أشباه المثقفين.

ولم أيأس من ردّ «علي عرسان» الجاف، وبقيت مصرًّا

(١) ولد في قرية صيدا بمحافظة درعا، سنة ١٩٤١م، ، كان رئيسًا لاتحاد الكتاب العرب بين عامي ١٩٧٧م-٢٠٠٥م. راجع: الموسوعة الحرة.

على طباعة الديوان على حساب الحكومة، فبعد أسابيع أخذت موعداً للقاء وزير الثقافة «رياض نعسان آغا»[1] في مكتبه بدمشق، فهو ابن مدينتي «إدلب»، وكان يزورنا في بيتنا ويجلس مع أبي ويعرف له حقّه، ويدرك أنّه شاعر مقتدر. ذهبت إلى مبنى وزارة الثقافة بدمشق، وأخبرت مدير مكتبه بالموعد، وعلى غير العادة خرج الوزير من مكتبه ليستقبلني عندما سمع اسمي من الموظف، ورحّب بي أيّما ترحيب وترحّم على أبي وأشاد به وبشِعْره، ثم قال لي: أبوك «**بحتري العرب**» لولا أنه ولد في محافظة «إدلب» ومات فيها.

وكان في ذاك اللقاء اثنان من الأدباء، فعقَّبَ أحدهما على كلام الوزير قائلاً: كلّنا هكذا يا سيادة الوزير! وُلِدْنا في قُرًى نائية، فدُفنت مواهبنا فيها. نظر الوزير إليه نظرة استهجان، وأجابه: يا رجل! أقول لك «**بحتري العرب**» وتقول: كلنا هكذا؟!

أدركت من ردّ الوزير أن الجالسَ فارغٌ، متسلق، حاله كحال الكثير من أدباء النظام. ومن دون أن يطّلع الوزير على

(١) ولد في مدينة ادلب سنة ١٩٤٧م، له عدة مؤلفا، أصبح وزيراً الثقافة في ٢٠٠٦م

الديوان الشعري وافق على طباعته، وأبقى لديه نسخة الكترونية ليقرأها مساءً في بيته.

ولم تمضِ سوى شهور قليلة حتى صدر الديوان[1] وانتشر في كلّ المحافظات، وكان له صدى طيبٌ وأثر كبير، حتى أن بعض المنشدين أخذ من بعض قصائده فكانوا ينشدونها ويترنمون بها دون أن يعرفوا مَنْ الشاعر الذي نظم تلك الأبيات الجميلة.

وأذكر أنَّ رجلاً طاعناً في السن من بلدة الفوعة من آل «جواد» كان يحب الشعر ويتذوقه، فاقترح عليّ إقامة ندوةٍ عن أبي في المركز الثقافي في «إدلب» فوافقته. وبعد أسبوع أتاني يائساً، وأخبرني أنَّ مسؤولي المركز لم يتعاونوا معه، فوعدته خيراً.

وقدّر الله أن كانت فتاةٌ من مدينتنا ترتاد صالة[2] الألبسة الرياضية وتشتري بعض حاجاتها من عندي. كانت قد عرَّفتني بنفسها وأنها نائبة مدير المركز الثقافي في المدينة، وشرحت لي عن ندواتها وعن معرض أخيها الرسام الذي لم أسمع به

(١) طبع هذا الديوان بعنوان «أغاريد الربيع» سنة ٢٠٠٧م

(٢) افتتح المؤلف صالة لبيع الألبسة الرياضية وكانت معروضاتها من ماركة ديادورا العالمية، فقد كان الوكيل الحصري لها في محافظة إدلب.

إلا منها.

وبعد أن انتهت من استعراض بطولاتها، قلت لها: لم لا تساعدون الشاعر «الجواد» في طلبه لندوةٍ تناقش أشعار «بديع المعلم»؟ فأجابت: لقد سألت عن الرجل ولم يعرفه أحد، ولا أعتقد أنَّ الندوة ستكون ناجحة لرجل مغمور. فقلت لها: صحيحٌ أنَّ الشاعر «جواد» طاعن في السن، ولكنه قادر على إدارة مثل هذه الأمسية، فردّت بسرعة: أنا لا أتكلم عن الشاعر «جواد»، بل عن المغمور «بديع المعلم»!

فقلت لها مستهزئًا: بالله عليكِ؟! هل تعملين بالمركز الثقافي أم أنك تمزِّين بجواره فقط؟ فأجابت بدهشة: لماذا تتكلم هكذا؟! فقلت لها: لقد صدر له ديوان شعر من إصدارات وزارة الثقافة، وهو معروض الآن في قلب مركزكم. فكيف لكتاب يُنشَر في وزارتكم وتكون نسخة منه في مركزكم، ولا تعلمين عنه شيئًا؟! ثمَّ من هذا الفِطَحْل الذي سألتِ أبي عنه؟ فقالت لي: هل الشاعر أبوك؟ قلت: نعم! فاحمرَّ وجهُها، وتأسَّفت بكلمات كثيرة، وأبدت اعتذارها ورحلت.

ولم تمض ساعة من نهار حتى جاءني اتصال منها لتخبرني بالموافقة على الندوة، وأنها ستكون بعد أسبوع فقط،

وأردفت أنها عاودت السؤال عن الشاعر بديع المعلم، وأيقنتْ أنَّها كانت مخطئةً، وكررت الاعتذار حتى نهاية المكالمة.

وبعد أيام عُقدت الندوة في موعدها، وحضرها لفيف من الأدباء والمثقفين والمهتمين، وكانت الندوة ناجحة بفضل الله. وبعد نهاية الندوة اقتربت مني تلك الموظفة لتقول لي: إنَّ هذا الشاعر حقيق به أن تعقد له ندوات ليس على مستوى المحافظة فحسب، بل على مستوى الجمهورية أيضاً.

ولعلك ترى- أيها القارئ الكريم - أن هذه الموظفة، وذلك المدير، هما أنموذج ممن وُضِعوا في غير محلهم، فأوصلوا البلد إلى حالة من الضياع والفراغ. وهكذا فقد خُوِّن الأمين، وائتمن الخائن، ووسّد الأمر لغير أهله.

❊ ❊ ❊

وهـذه قصيـدة مـن نظـم سـيدي الوالـد رحمـه الله، اشـتهرت بين الشعراء والمنشدين:

لِلَّـهِ مِـن ذِكـرى تَمـرُّ بِخَاطـري
فالقلـب كـم صلـى عليك وسـلَّما
فأصـوغ ألحانـا تنـزل مـن عـلٍ
حتـى اليـراعُ يـكاد أن يترنَّمـا
أعَلِمْـتِ -يـا صحـراء - أنَّ محمداً
وهـو الـذي كان الكمـيَّ الْمُعْلِمـا؟
يـأوي إلـى غـار وصاحبُـه معـاً
مسـتخفياً لا يأتلـي متلثِّمـا
وعنايـة الرحمـن تـاجُ فخَـارِه
يحميـه في الضَّـراء أعظمُ مـن حمى
يـا مولـد الهـادي أقمْـتَ حضـارَة
كانـت أعـزَّ علـى الزمـان وأنعَمـا
إن يزعمـوا أن الهـدى رجعِيَّـةٌ
إني- لعمـر الله- لـن أتقدمـا ...

داوَوا فـكان السُّـمُ كأسَ دوائهـم
وسـقَيْتَ أنت فكان شـرعُك بلسمًا
خسـئ البغـاة المبطلـون فإنَّهُـم
قد أنكـروا ضـوء النَّهارِ مـن العمى
غشَّـت عيـونَ الجاحديـن غِشـاوةٌ
مـا أجهـلَ الرِّعديدَ بـل مـا أظلَما!

❊ ❊ ❊

كَفُّ اليدِ عن العمل!

وأذكر أن رجلاً إبان ثورة الثمانينيات جاء إلى أبي ليخبره أن حزب البعث أوقفه عن التدريس، ومنعه من مزاولة مهنته.

ولم تكن المسألة مهنةً فحسب، فهو فوق ذلك أحبّها وأفنى فيها عمره، وضحّى بكلّ ما أوتي من قوةٍ ومن شبابٍ ليُنشِئ جيلاً صالحًا، خاليًا من العيوب، يملك مع العلم أدبًا وخُلُقًا.

تلقَّى الوالد – رحمه الله- الخبر وكأنّه ضربة على رأسه، أقعدته ساعات لم يعرف بسببها ماذا يجري حوله، ولم يدرِ سبب إقالته عن التدريس، فهل ذنبه أنَّه يخاف الله في عمله؟ أم ذنبه تعليم الطلاب الفضيلة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ أم أنه فشل في أن يكون منافقًا للحزب، متملقًا للأب القائد[1]؟

كيف له أن يترك ماءه وهو السمكة إن أراد أن يخرج منه يموت؟! وكيف له أن يلقي بطباشيره التي تلوّن ملابسه

(١) هذه بعض الألقاب التي تطلق على حافظ أسد!

كلوحة فنان يعتز بها؟!

كان ناقل الخبر يتكلّم أمام أبي بألم وحُرْقة، وهو يخبره بالذي جرى معه، حتى ظننت أبي يقول في نفسه: حياتي الحقيقية بجانب لوح، وداخل صف، وفي ممرات مدرسة، وبين حشد الطلاب وهم يتجمعون حول أستاذٍ يحبهم ويحبونه. فكيف أعيش الآن؟!

جلس والدي في بيته سنة كاملة يتقاضى راتبه من غير أن يقوم بعمل أو وظيفة، وكأنّه مشلول أو معاق، أو أنّ الحكومة رأته غير صالح فنبذته في إقامة جبريّة، فكان كحصان كسرت ساقه، لا هو قام راكضاً ولا هو مات قاعداً. كان شديد الخوف مما تخبئ له الأيام، فقد خشي مما سيتبع إيقافه عن التدريس، فهل سيعتقل أم سيفصل من وظيفته وهي المعيل الوحيد - بعد الله- له ولأبنائه؟ أم ماذا سيُفعل به؟

كان أبي -رحمه الله- يجلس لساعات طويلة شارد الذهن، مبتعداً عن كتبه وأشعاره التي أحبَّها، فقد لازَمَه الحزن والغم، وكبُر عشرات السنين في هذه السنة القاسية. وأخيراً وبعد مضيّ سنة ارتاح شيئاً ما، وذلك حين نُقِلَ من وزارة التربية إلى مديرية الأحوال الشخصية ليكون كاتباً في دائرة

السجل المدني، فرضي بما كتبه الله له محتسبًا قانعًا بأنَّ الله لن يضيّعه، ولن يجعل لهؤلاء السفلة عليه سبيلاً.

ولك أن تتأمل – عزيزي القارئ- كيف تُدار الدولة وكيف يُعامل الموظف، ولك أن تتأمل أيضًا كيف يضيع عُمر الشعب السوري، وكيف يُمضي سنواته المتشابهة: تحكمه عائلة واحدة، تستعبده، وتنكّل بأبنائه. عائلة واحدة ترفع الوضيع وتحطُّ من قدر الرفيع، وتظلم وتتجبّر وتتكبر!

❊ ❊ ❊

وهَلَكَ الطاغية

وبقي هذا الحال إلى أن جاء صيف عام ألفين حين كنتُ أعمل في المملكة العربية السعودية مدرباً[1] لنادي الأنصار الرياضي[2] بالمدينة المنورة. وفي أحد أيام الإجازة التي قضيتها في إدلب فوجئت بظهور أحد مقدمي البرامج الدينية على التلفاز، وهو شديد النفاق والكذب وتمسيح الجوخ[3] «مروان شيخو»، يظهر باكياً معلناً موت الإله الخالد «حافظ أسد».

ومن فرحي يومها تراءت لي الشمس ضاحكةً. شعرتُ وكأنَّ هذا اليوم هو أوَّل أيام حياتي، فقد ولِدت من جديد. بدا لي الشجر في حارتنا يرقص سعادة، والطيور تهلِّل والريح تكبِّر. كأنَّ سوريا بموته عادت موطناً لنا بعد أن كانت سجناً بأسوار عالية، لا يصل الهواء لمن يعيشون فيه.

---

(١) محمد ظلال المعلم كان في عِداد المنتخب الوطني لكرة الطاولة لأزيد من خمسة عشر عاماً، أحرز خلالها بطولة سوريا لعدة أعوام، وشارك في جميع البطولات الدولية والقارية التي جرت فيي تلك الأعوام، وكذلك حصل على بعض المراكز المتقدمة في بعض البطولات. وهو مدرب في لعبة كرة الطاولة.

(٢) درّب نادي الأنصار بين عامي ١٩٩٧-٢٠٠٢م

(٣) عبارة شائعة في سورية، وهي كناية عن التملق والنفاق للآخر.

لا أستطيع – يا أصدقاء–أن أصف مشاعري في ذلك اليوم العظيم الذي مات فيه إله البعث وطاغية من طواغيت العصر. لقد تسمّرنا أمام التلفاز وكأنَّ على رؤوسنا الطير، نخاف أن نطيل النظر إليه حتى لا نُتَّهَم بالشماتة. لم نخرج يومها من البيت أنا وإخوتي، جلسنا متحلِّقين صامتين مستمعين إلى التلفاز وهو يذيع خبر موت الفاجر الفاسق.

في ذلك اليوم كادت الفرحة تقفز من وجه أبي ومن وجوهنا، فقد مات من أوهمونا أنه الخالد، مات واحد من أعظم جبابرة الأرض، مات من قالوا عنه: إنه خالد لا يموت، مات من ردَّدت الجماهير بأصواتها العالية التي ملأت جوّ السماء «إلى الأبد يا حافظ الأسد». ووصل الأمر بفجورهم أنهم كانوا يهتفون في المسيرات الحاشدة لحزب البعث هتافاتٍ تسيء للذات الإلهية، وتقدس حافظ أسد. فقد اشتهر في سوريا هُتاف بالعامية: (يا الله حلَّك حلَّك.. تحط الأسد محلَّك[1]..!!) تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً. فهل يا ترى بسكوتنا عن هذا الكفر البواح جعل الله عيشنا ذلاً وخسراناً؟!

(١) ومعنى العبارة: أنه آن الأوان ليستريح الرب– تعالى الله عن ذلك علوّا كبيراً– وأن يأخذ حافظ أسد مكانه!

نعم! مات أبو جهل، مات من خان الأمانة وباع الجولان، مات من باع العرب والعروبة ومن حارب الله ودينه، مات أحد أكثر طغاة الأرض إجراماً. وبتنا نفكّر: يا الله! هل نحن نحلم أم أن صبرنا وتحمُّلَنا وقهرنا، سيُبْدِلُنا ربنا خيراً منه؟

لم نترك التلفاز لحظة واحدة، ولم تفارق الشاشة عيوننا، واستمعنا لساعات وساعات بإصغاءٍ لكلِّ محللٍ سياسيٍ يظهر على قناة الجزيرة وغيرها، وحين استلم الحكم «عبد الحليم خدام»[1] نائب الرئيس تفاءلنا خيراً، وبمعنى أصحّ مررنا من عنق الزجاجة ونجونا من التوريث -كم كنا أصحاب قلوب طيبة-، فالطائفة النُصيريَّة لن تستطيع أن تحكم عاصمة الأمويين بعد ذاك، والوضع في سوريا يتبدَّل، وقد نستطيع في وقت قريب أن نحصل على حريَّة طالما انتظرناها.

واليوم أسترجع ذاكرتي وأضحك على نفسي: كم كنَّا سُذَّجًا: أبهذه البساطة ينتهي حكمٌ استمرَّ أكثر من ثلاثين

(١) عبد الحليم خدام: أبرز المقربين من حافظ الأسد، وشغل منصب وزير الخارجية ثم نائب رئيس الجمهورية العربية السورية. يعتبر مهندس السياسية السورية في لبنان، وهو الذي ألقى بيان سقوط الجولان قبل سقوطها بـ ١٧ ساعة. مات في فرنسا عام ٢٠٢٠م.

عامـاً؟! حكـمٌ خنـق فيـه «حافـظ أسـد» الشـعب، وهيّـأ البلـد للتوريـث. أيعقـل أن هـذه القلعـة الشـاهقة العظيمـة التـي بناهـا بالتخويـف والقتـل وجماجـم الأبريـاء، أيعقـل أن يُسَـلِّمها أبنـاؤه والزمـرة المتحالفـة والمستفيدة معهم للشعب بهذه البساطة.

أي عاقـل يظـن أن العالـم الداعـم للأنظمـة الدكتاتوريـة في هـذا الشـرق العربـي البائـس سـيقفون موقـف المتفـرج بعيـداً- كمـا كنـا نظّـن آنـذاك-. كنـا نظـنَّ -مـن بسـاطتنا-أن أحـداً لـن يتدخّـل، وأن الطغيـان المـزروع منـذ ثلاثيـن عامـاً حتـى ثبَّـت جذوره، سيرحل في يوم!

وبشـكلٍ عاجـل يعقـد مجلـس الشـعب، الـذي عينـه سـابقاً «حافـظ الأسـد» ومخابراتـه وعملائـه بقيـادة الطرطـور «عبـد القـادر قـدورة»[1]، يعقـد جلسـته الطارئـة فيوافـق المجلـس بالإجمـاع علـى تغييـر دسـتوري[2] في جلسـة مدتهـا ثـلاث دقائـق،

(١) عبـد القـادر قـدورة: ولـد سـنة ١٩٣٥م في قريـة البريقـة «واحـدة مـن قـرى الجـولان السـوري». وهـو عضـو بـارز في حـزب البعـث خـلال عهـد حافـظ الأسـد. وكان رئيسـاً لمجلـس الشـعب لفـترة طويلـة، أبرزهـا حيـن تـمَّ تغييـر الدسـتور ليصبـح علـى مقـاس بشـار الأسـد في جلسـة دامـت ثـلاث دقائـق فقـط، فتعدلـت المـادة التـي تتحـدث عـن عمـر الرئيـس مـن ٤٠ سـنة حتـى ٣٤ سـنة.

(٢) انعقـد الجلسـة بتاريـخ ١٠/ حزيـران / ٢٠٠٠م. ونـص المـادة بعـد التعديـل هـو» يشـترط فيمـن يترَشَّـح لرئاسـة الجمهوريـة أن يكـون عربيـاً سـورياً متمتعـاً بحقوقـه المدنيـة والسياسـية متممـاً الرابعـة والثلاثيـن مـن عمـره». وهـو عمـر بشـار أسـد في

فتكون على مقاس الابن «بشار أسد» بحيث يتوافق مع عمره وطوله ولون بشرته وعينيه.

وبعدها تأتي وزيرة الخارجية الأمريكية «**مادلين أولبرايت**» التي هي أصلاً إمبريالية داعمة للصهيونية، عدوة لمحور الممانعة والمقاومة -كما يصفها إعلام النظام المكتوب والمسموع- وتعقد تلك العجوز الشمطاء جلسة خاصة منفردة مع الوريث القاصر لمدة أربع ساعات، وتنتهي الجلسة بإعطاء أمريكا الضوء الأخضر على تنصيب بشار الابن رئيساً لسوريا، وهو الممانع الكاره لأمريكا، حامل لواء التحرير من الرأسمالية والإمبريالية.

وبتلك الشرعية المزعومة التي أتت من أمريكا ترجع سوريا إلى بداية عهد «**الحركة التصحيحية**» التي قام بها الأب الفاطس حين استولى على الحكم. و«**الحركة التصحيحية**» هي حركة انقلابية سيطر فيها حافظ أسد على سوريا، فاستولى على الحكم، وحكم البلاد بشكل منفرد وقد داس على إرادة الشعب بحذائه العسكري.

ويسير أسد الابن على خطى أبيه المجرم، وتستمرّ معاناة

ذلك الوقت!

الشعب السوري، ويستمرّ الظلم والقهر، وتنقطع حبائل الأمنيات، وتموت الكلمة في مهدها، ويعلو صوت الظلم والتجبّر من جديد.

ثم يموت أبي بعد سنوات قليلة دون أن يرى شمس النصر تشرق على بلادي، ودون أن يكحّل عينيه برؤية نظام القهر وقد دُحر، ودون أن يطلق عِنان شِعره ذامًا هؤلاء الأوغاد على الملأ. يموت وفي قلبه حسرات على عُمرٍ أضاعه خوفًا وأملاً وانتظاراً ولم يتحقق من أمله شيء. يموت حاملاً في صدره كلّ أفعال الظالم ليضعها بين يدي أحكم الحاكمين.

سألته وهو في أيامه الأخيرة، وقد أعياه المرض لدرجة أنه لم يعد يفرق بين أولاده: من يحكمنا؟ فأجابني بحرقةٍ وثقةِ العارفين: إنهم العلويون، نعم! إنهم الطائفة المجرمة التي أثكلت الأمهات، ورَمَّلت الزوجات، ويَتَّمت الأطفال، ورَوَّعَت الآمنين، وقتلت الإنسان، وزرعت الشرّ والخوف. نعم! إنهم من اغتصبوا السلطة، وقتلوا أحلام الشعب وآماله.

❊ ❊ ❊

الربيع العربي[1]

سنوات فوق سنوات وأولادنا يكبرون، والعمر يمضي بنا ونحن نحاول أن نمسك به، ولكن عبثًا، فهو يأبى إلا أن يمضي، ليعلو الشيب مفارق رؤوسنا، وتحني أعباء الحياة ظهورنا، إلى أن بلغت الخامسة والأربعين، في نهاية مرحلة الشباب وبداية الشيب. أدخل ذات يومٍ على أخي وأسأله: هل سمعت أنّ شابًا في تونس أحرق نفسه؟ فتساءل أخي مستغربًا: ولم فعل ذلك؟ فأجبته بأسى وقهر كلّ هذه السنين:

لقد أحرق الشاب «**محمد البوعزيزي**»[2] نفسه لأن بعض بلطجية رئيس تونس «**زين العابدين بن علي**» كسروا له عربة الخضار التي تساعده على كسب قوت اليوم في هذه الحياة

---

(١) الربيع العربي هي حركات احتجاجية سلمية ضخمة انطلقت في بعض البلدان العربية خلال أواخر عام ٢٠١٠م ومطلع ٢٠١١م، متأثرة بالثورة التونسية التي اندلعت جراء إحراق محمد البوعزيزي نفسه ونجحت في الإطاحة بالرئيس السابق زين العابدين بن علي، وكان من أسبابها الأساسية انتشار الفساد والركود الاقتصاديّ وسوء الأحوال المَعيشية، إضافة إلى التضييق السياسيّ والأمني وعدم نزاهة الانتخابات في معظم البلاد العربية.

(٢) أحرق محمد بوعزيزي نفسه في ١٧/ كانون الأول / ٢٠١٠م

وصادروا له بضاعته. وحين اعترض عليهم لطمته شرطيّة على وجهه لطمة أحرقت قلبه، وزلزلت ما تبقى من كرامته المهدورة. لم يجد أمام كلّ هذا الظلم والقهر إلا أن يحرق نفسه لتخرج بعض النار التي تحرق قلبه.

إيه! يالتعاسة الحكام، فقد سرقوا حياته وحياتنا كلّها، لقد جعلها هؤلاء الطواغيت كجهنم، علينا جميعًا أن ندخلها، وأن نحترق ونكتوي من الألم، وفوقها ممنوع علينا أن نفتح أفواهنا، وغير مسموح لنا أن نصرخ من الألم، وإن نحن صرخنا فقد كتب على جباهنا أننا إرهابيون، وأننا أعداء الأمة والقائد الأعظم، خائنون للجيش ولعقيدته الخالدة.

نعم، لقد أحرق «**البوعزيزي**» نفسه ورحل إلى ربه، ليخبره أن هذه الحياة ليست له، وأنه عالة على المجتمع رغم أنه أنهى الخدمة الإلزامية، وفعل كلّ ما بوسعه ليُرضي الوطن، ولكن لصوص الأوطان لا يرضون إلا أن نكون كحيوانات الأرض، نخدمهم ونتمسح بهم ونعظمهم، لعلّ السيّد يرمي لنا بشيء بسيط من خشاش الأرض. نعم، صعدت روحه لتقول لله: لقد كبر الخطب، وتلاشى العدل، ونما الظلم، وتكالبت علينا خنازير الأرض.

«**البوعزيزي**» -عليه رحمة الله- يا أخي كان أشجع منَّا، مات ليحرِّر نفسه من ذلِّ العبوديّة وجَور الطغاة. أحرق نفسه ليقولَ لنا: أين أنتم؟ ولم سكتُّم طول هذه السنوات عن حقوقكم؟ أما آن للفجر أن يبزغ؟ ألم يحن الوقت لتنفضوا عنكم غبار الذلة والمهانة؟

نعم، مات منتحراً فيظهر مشايخ السلطة ليتكلّموا عن حرمة ما فعله، وربما وضعوا من يقوم بذلك مخلَّداً في نار جهنم، ولِيَقولوا: إنّه ارتكب جرماً لن يغفره الله له! أما هم فلْيَستمرّوا بالركوع والسجود لحكامهم أصحاب الجلالة والسيادة والسُّمُوّ. وسيكون هذا الشاب وكثير من شباب وطننا خصماءهم يوم القيامة.

أسرعنا إلى جهاز التلفاز الذي كان في مكان عملي، وجلسنا نقَلِّب من قناة إلى أخرى: «العربية» و«الجزيرة» وغيرهما. قال لي أخي بصوت خافت: هل من المعقول أن تقوم ثورة في أحد بلدان العرب؟ أجبته: ستقوم الثورة وتنفرط المسبحة، فأمَّة العرب رغم اختلاف انتماء حكَّامِها وأشكال الحكم فيها إلا أنها محكومة بنظام واحد، فقد خرج الاستعمار من بلادنا وتركهم بيننا يصولون ويجولون ويقتلون

ويظلمون تحت علم وسمع ورضى النظام العالمي.

بقينا أياماً ونحن نتابع ثورة تونس الخضراء، وكان هروب الطاغية «زين العابدين بن علي»[1] رئيس تونس مفاجأة غير متوقَعة، فكيف لأحد آلهة العرب أن يترك السلطة تُفْلِتُ من بين يديه دون أن يدمّر البشر والحجر والشجر؟! وكيف لمن يرى في نفسه القائد الخالد الملهَم المعصوم أن يترك كرسيه لمجرد أن قام الشعب بثورة؟ لا أصدِّق أنَّ حاكماً عربياً يترك بلده دون أن يملأ شوارعها بالدماء.

هرب «ابن علي» وكبر معه أمل كلّ شريف من الخليج إلى المحيط، هرب هو ونزل شعب تونس إلى الشوارع والساحات يحتفل بنصره، ورقصت لفرحته قلوبنا طرباً بسقوط أحد أركان القهر العربي. هذا مؤشرٌ مبشّر يا أخي، أقسم لك أن الثورة العربية قادمة لتطيح بكل رؤوس الفتنة وحكام الغدر. ثورة تونس أولى خطوات الفرَج. نعم، نحن نتحرر، نحن نكسر أسوار العبودية.

وتابعت حديثي معه سائلاً: ولكن هل تعتقد أن وطننا

(١) زين العابدين بن علي (٣ / أيلول/ ١٩٣٦م - ١٩ / أيلول/ ٢٠١٩م)، رئيس الجمهورية التونسية منذ ٧ نوفمبر ١٩٨٧ إلى ١٤ يناير ٢٠١١م، وهو الرئيس الثاني لتونس منذ استقلالها عن فرنسا عام ١٩٥٦م بعد الحبيب بورقيبة،

الحبيب سيرى ضوء النهار؟! فقال لي: أنا أثق أن الثورة ستحطّم الأسوار التي أحاطت بمدننا فأحالتها سجوناً وزنازين، ولكن من المؤكد أن سوريا ستتأخر قليلاً عن باقي بلدان العالم العربي بالثورة، فبلدنا مختلف عن البقية.

وأردف أخي: نظام «أسد» له خاصيّة فريدة في الشرق الأوسط والعالم العربي، فقربه من فلسطين المحتلّة وتسلط الطائفة النصيريّة التي هي بالأصل أقلية لا تتجاوز ٧٪ من شعب سوريا التي أرست دعائم الحكم بالحديد والنار، هذا كلّه سيجعلنا أكثر تأخراً عن اللحاق بركب الثورات العربية، كما أعتقد أنَّه من الصعوبة بمكان أن نكون من أوائل البلدان العربية التي تثور على طواغيتها.

قال أخي هذا الكلام ثم صَمَت، وسكتُّ أنا كذلك، وعلى الرغم من صمتي إلا أنني شعرت بأنَّ الثورة قادمة إلى سوريا، وأنَّ الحقَّ سيطيح برؤوس الظلمة، وسأبذل جهدي أن أكون شرارة الثورة، فإن أنا قُتِلت أو اعتُقِلت، فهذا الأمر لا قيمة له، فهو في سبيل إسقاط نظام الطغيان والفساد. فلتمش الثورة على جسدي لعلها تطفئ حقدي وتريح قلبي، وتخلع هذه الطائفة من حكم سوريا، وتلقي بهم في المجارير

الآسنة. وعار علينا أن نضعهم في مزابل التاريخ فيجب ألّا يجدهم أحدٌ إن فكر أن يبحث عنهم في مزابله.

❊ ❊ ❊

في شعبة التجنيد

خرجت صباحاً إلى دائرة التجنيد لأجل تأجيل أداء الخدمة العسكرية لشقيق زوجتي، فهو مقيم في السعودية.

صعدتُ الطابق الثاني ووقفتُ بالدور القصير الذي لا يتجاوز ستة أشخاص، ولكن أحداً في الدور لم يتحرك، والغرفة مقفلة، والمراجعون ينتظرون.

تكلمت مع الشاب الواقف خلفي والآخر الذي أمامي، وسألتهم عن أمر الموظفين، فلم يجبني أحد. وعندها ذهبت إلى غرفة «المساعد»، وكان الضابط رئيس شعبة التجنيد في إجازة على ما يبدو، فسألت المساعد: أين الموظف؟ فأجابني دون أن يرفع رأسه: بعد قليل سيأتي، انتظر في دورك! فزادني ذلك احتقاناً وغضباً، ورجعت إلى الصفّ أنتظر دون جدوى.

رأى أحد الواقفين غضبي وتململي فقال لي: إنهم في تلك الغرفة يفطرون، فأجبت مصدوماً: ماذا؟! يفطرون ونحن ننتظر؟ يغلقون الباب على أنفسهم كل هذا الوقت، وهم

مازالوا في أول ساعات الدوام؟ غلى الدم في عروقي، وكأنَّ الفرصة جاءت. أسرعت إلى الغرفة وفتحت بابها، فإذا بعض العساكر يحتسون الشاي ويتناولون الفطور دون مبالاة بمن يقف منتظراً على بابهم. وبملء صوتي الجَهْوَري صِحْت على أوّل من صادفني منهم: أنت تفطر ونحن ننتظر؟ ما هذا الذوق؟ أليست هذه من ساعات الدوام؟

تفاجأ العسكري الموظف من جرأتي، ورمى رغيف الخبز على الطاولة[1]، وقال: حسنًا، لن نفطر، هل سرّرت؟ وقام متجهًا إلى غرفته لولا أن أحد رفاقه سبقه، وقبل أن يخرج أغلق الباب بوجهي، فأحدث صوتًا كقنبلة في ساحة معركة.

هنا كدت أجنُّ، وازداد صراخي في بهوِ شعبة التجنيد: هل تظنني خادمًا عندك وعند أهلك حتى تغلق الباب في وجهي؟! أم تظن نفسك فوق القانون؟ سأشكوك إلى فرع الأمن المسؤول عنك، ولن أتركك حتى تعلم من أنت!

وتعالت أصوات المراجعين في الردهة احتجاجًا، الأمر الذي أجبر جميع الموظفين على الخروج، ومن بين من خرجَ موظفٌ قصير القامة، ركض نحوي وحاول أن يمسك

(١) تعبيراً عن تبرّمه وحنقه.

بي، فصِحْت في وجهه: إن أعدت الكرَّة فسأكسر رقبتك! لم يصدق الموظف ما سمع. فمن الصعب أن تتكلّم في دولة البعث مع أصغر موظف مدنيّ، فكيف إن كان عسكريًا؟!

ساد الصمت بعدها للحظات، وانتابني خوف من أن يتطّور الأمر، ففي النهاية هذه دائرة عسكرية، ونحن في دولة يحكمها العسكر. ولكن شابًا بالعشرينات آزرني وأمسك بتلابيب الرجل القزم، وقال له بصوت رجولي وبتحدٍ: إنه حقّنا ولن نسكت عنه بعد الآن! فتراكض بقية الموظفين ليخلّصوا هذا الصوص الذي نفَش ريشه من بين يدي الشاب البطل. ثمَّ خرج المساعد أوّل فطيّب خاطرنا وأرجع الهدوء إلى الدائرة، ونحن بدورنا انتظمنا في الصف. وخلال دقائق كنت عند الموظف يتفحَّصني وهو يتكلّم معي بطريقة قرود الجبل[1] ليثبت لي أنَّه من الطبقة الحاكمة الخالدة، وأنه من جماعة المغفور لهم أولاد البطة البيضاء[2]، ولكنّني لم أهتم وأصررت على أنه أخطأ، فأخذ الورقة عاجلاً ووضع

(١) أي لهجة سكان الجبال الساحلية، وأغلبهم من النصيرية.
(٢) كناية عن الأفضلية والمكانة الرفيعة. وتستخدم العبارة في مقام السخرية ممن يوصفون بذلك.

حافره[1] عليها بتوقيع سريع، فما ظننتُه حينها إلا حماراً وحول رأسه رسنٌ، ثم أخذت ورقتي وانصرفت.

صحيح أني لم أغير واقعاً، ولم يكن لتصرُّفي ردَّة فعل خارج حدود شعبة التجنيد، ولكن بالمقابل أحسست أنَّ النظام وأتباعه بدؤوا يخافون، وعلمت لاحقاً بأنّ تعميماً صدر إلى كلّ دوائر البلد ومؤسساته بتحسين المعاملة مع المواطنين بعد ثورة تونس.

لقد بدأ النظام يتحسَّس رأسه، وفهم أنَّ الشعب سيطال جبهته قريباً، ولكن كيف يبدأ الأمر، ومن أين؟ العلم عند الله!

❊ ❊ ❊

(١) الحافر للحمار كالقدم للإنسان. واستعمل هنا للإهانة والتحقير.

أحجار الدومينو

ثـمَّ تتوالـى الأحـداث، وتتسـاقط أحجـار الدومينـو في العالـم العربـي، فتخـرج ثـورة في ليبيـا وأُخـرى في اليمـن وثالثـة في مصـر. شـعرت حينهـا أن الـدور آتٍ إلـى سـوريا، وأنَّ علينـا تجهيـزَ أنفسِـنا. بـدأ بعـض الأصدقـاء يـترددون كلّ يـوم إلـى صالـة بيـع الألبسـة الرياضيـة التـي أملكهـا -وكانـت تتألـف مـن طابقيـن- فاتخـذت أنـا وأخـي عبيـدة (الـذي رافقنـي طـول مسـيرة حيـاتي في الرياضـة وفي العمـل وفي كل مشـاريع الحيـاة)، اتخذنـا ركنـاً مـن الطابـق الأسـفل ليكـون مـكان لقـاءٍ لـكلِّ معارفنـا القدمـاء أو الجـدد، نتناقـش بأمـور الثـورات وأمـر ثورتنـا التـي لاحـت في الأفـق القريـب، بعـد أن كنَّـا نظـنُّ أنَّ طـوق العبوديـة كُتـب علينـا إلى نهايـة حياتنا.

تابعنـا ثـورة الشـعب الليبـي بتلهُّـفٍ وحمـاسٍ شـديدين، وبـدا أن الوضـع العربـي أصبـح علـى كـف عفريـت، وأدركنـا أن صـوت ثـوار تونـس وليبيـا لابـد أن يُسـمع صـداه في سـوريا. والقنبلـة التـي زرعهـا الهالـك حافـظ أسـد توشـك أن تنفجـر، فقـد جعـل مـن سـوريا مزرعـةً لـه وللمسـتفيدين المنتفعيـن، كذلـك فـإن

أسد سرق ثروات سورية ولا سيما النفط، وتحكّم بالجيش والشرطة والوزارات، وورَّثَ الحكم لابنه الأهبل.

❊ ❊ ❊

درعا!

وتستمر النقاشات والجدالات في ذلك المقرّ الذي اتخذناه لأنفسنا، وترتفع الأصوات أحيانًا وتنخفض أحيانًا أُخرى، إلى أن ترد الأخبار من مكان آخر، غير تونس وليبيا ومصر واليمن!

إنها **درعا**، المدينة التي تقع في أقصى الجنوب السوري، ومنها يرد الخبر العاجل: أطفال صغار كتبوا على حائط مدرستهم: إجاك الدُّور يا دكتور..لم يستوعب النظام ما حدث، ولم يتمالك نفسه أمام كلمات خطّها صغار بأناملهم على جدار المدرسة، فما هذا الكفر البواح؟ وما هذه الجرأة على الآلهة؟ وأيّة وقاحة من هؤلاء الأطفال أن يكتبوا هذه الكلمات؟

نحن في لقاءاتنا في الركن المخصص ذاك نتحدث: ترى ماذا وكيف سيتصرف أصحاب القرار؟ يجيب بعضهم: أظن أن الدولة ستعاقبهم أشد العقاب. يقول آخر متهكّمًا: يكفي أن تُمحَى هذه الكتابات وأن يُنَبَّه الأطفالُ عن طريق مدير مدرستهم، وينتهي الأمر. يسأل أخي: وكيف لهم أن يتركوا

الأطفال دون أن يعطوا الناس درساً تتذكَّره الأجيال؟!

اشتدَّ غضب أجهزة الدولة وأركان الحكم وكلّ من يؤمن بأن الرئيس بشار إله يمشي على الأرض، فمن درعا أيضاً ترد الأخبار سراعاً، إذ يعتقِل العميد «عاطف نجيب»[1] ابن خالة الرئيس الأطفالَ، ويهين أهل درعا بكلمات[2] لا يستطيع قلمي أن يخطّها، ويطعن بشرفهم.

هنا بدأنا نقول «**بسم الله.. والله أكبر**»، فقد بدأت ثورتنا المباركة في أرض الشام المباركة من أناس مباركين، إنها ثورة أهل سورية، ثورة الحقّ ضدّ الظلم، ثورة العدالة ضد التجبّر، إنها أعظم ثورة لأعظم شعب، ثورة قامت لأجل الكرامة ولم تقم لأجل لقيمات ككثير من ثورات العالم،

(١) ضابط عسكري خريج الكلية الحربية. ترقى في عسكرياً حتى وصل إلى رتبة عميد، ترأس فرع الأمن السياسي في درعا حتى عام ٢٠١١م. اعتقل ١٨ من الشبان الصغار، وقام بتعذيب بعضهم إثر الكتابات التي كُتِبت على جدار المدرسة.

(٢) من غطرسة عاطف نجيب أنه أهان وجهاء زاروه في فرع الأمن السياسي في «درعا المحطة»، و رفض طلبهم بإطلاق سراح الفتية الذين احتجزهم أواخر شباط/ فبراير بسبب كتابتهم « إجاك الدور يا دكتور..». قال نجيب بحزم: «انسوهون!». وتقول روايةٌ بإنه أخبر الوجهاء أن عليهم أن يرجعوا إلى منازلهم وينجبوا أطفالاً آخرين، فإن كانت تنقصهم الرجولة، فعليهم إرسال زوجاتهم إلى مكتبه، وسيضمن أنهن سيغادرن وهنّ حوامل. ومن السذاجة الظن أن نجيب لم يدرك أنه تجاوز ما لا يمكن أن تقبله كرامة أهل حوران.

ثورة بدأها أطفال ولكنهم أبطال.

الله أكبر على كل من طغى وتجبّر، صاحت حناجر الشرفاء في درعا الكرامة، درعا الرجولة، درعا العروبة والإسلام.

وطبعاً كعهدنا بأسد وجرذانه لابد أن يظهروا وجوههم القبيحة، فقتلوا وشنّعوا وقصفوا الجامع العمري[1]، ولم يتركوا من أوّل يوم مكاناً للصلح أو للرجوع خطوة إلى الخلف، فأحرقوا مراكب علاقتهم مع الشعب، وخرج «بشار أسد» في أوّل خطاب[2] له وهو يضحك ويضحك، ويقول: **من أرادها حرباً فأهلاً به!**

كنتُ قد سمعتُ سابقاً أكثر من خطاب لهذا الأهبل المغرور، ولكني -أصدقكم القول- ما كنت أظنّه بهذا الغباء، وماكنت أظن أن سوريا العظيمة يحكمها هذا التافه

(١) الجامع العُمَري في درعا هو أحد المساجد الأثرية المنتشرة في محافظة درعا، ويقع وسط البلدة القديمة، وهو بناء أثري يعود باسمه إلى الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حيث أمر ببنائه عندما زار المدينة سنة ١٤هـ، وأشرف على بداية بنائه جمع من الصحابة منهم: أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما.

(٢) ألقى خطابه بتاريخ ٢٠/ حزيران / ٢٠١١م. وصف خطابه بالمخيب للآمال والمثير للسخرية والمكرور المعاد، وقد تحدث فيه عن المؤامرات الخارجية والمتظاهرين والمخربين ونوع الحل والانتخابات التشريعية، والعفو والفكر المتطرف والإخوان المسلمين...

الذي يصوّره الإعلام أنه أسد!

ونرجع إلى صالتنا التي فيها يتابع الجميع الأحداث ويتداولون الآراء، إلى أن وردنا نبأ أنَّ مظاهرة ستنطلق من جامع الروضة في قلب مدينة «إدلب»، فعقّب أخي: لا أصدق ذلك، فبعد أن نكَّل الأسد بالمدينة وأهلها عام ١٩٨٠م لم ترفع المدينة رأسها، فهل من المعقول أن حناجرنا ستصدح بإسقاط الرئيس بعد ثلاثين عاماً من أوّل وآخر مظاهرة شاركتُ بها في حياتي؟! هذا شيء فوق الخيال.

أجبته: ولكننا سنخرج فيها نحن وأولادنا إن شاء الله. فإذا بأخي يرجوني ألَّا أخرج معهم، وأن يخرج هو وابني الكبير، فإن قُتِلَ في المظاهرة أبقى أنا معيلاً لأسرته، فاستنكرت عليه: ما الذي تقوله؟! نحن سنخرج بمظاهرة سلمية، لا سلاح فيها ولا حتى سكين، سنخرج ونعلن كلمتنا وماذا نريد من الحكومة ورئيس الدولة بكلّ حضارة وسلام وإنسانية، فكيف تتكلَّم هكذا؟!

ولكن من يعرف هذا النظام الحقير القاتل يدرك أنّه قد يقتل العشرات بل المئات حتى يُسكِتَ أيَّ صوت يرفض تجبّره وتكبّره وظلمه. لقد رفضت طلب أخي في البداية،

ولكن أمام إصراره وإلحاحه قبلت مضطراً.

وفعلاً في يوم الجمعة الموعود صليت في جامع قريب، وخرجت مسرعًا إلى القرب من جامع الروضة، وهناك تناهى إلى مسامعي صوتٌ يهدر كأمواج البحار، صوتٌ حسبته قادمًا من السماء، صوتٌ يكبّر ويهلِّلُ ويطلب النصرة لأهل درعا. اقتربت من المظاهرة ومشيت وراءها وأنا غير مصدق وغير واع لما يجري، هل أنا في حلم أم في الحقيقة؟ وتذكَّرت أبي وأنا أرى المشهد المهيب للحشود التي تهتف وتثور على النظام، وسالت من عينيّ دموع امتزج فيها الحزن بالفرح والخوف. لا أعلم هل هذه ثورة أم فقاعة صابون؟ ولكن لا! قلت لنفسي ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران: ١٤٠]، وهناك ضوء في نهاية النفق!

رآني أحد مدرسي الرياضة وهو من آل «دخان» وأنا أتبع المظاهرة، فقال لي: كيف لك أن تمشي وراء الساقطين[1]؟ هؤلاء يريدون تهديم البلد، الرئيس جيّد ولكن من حوله هم السيئون، هؤلاء المتظاهرون أكثرهم من أهل القرى

(١) ككلّ ثورة، يصف الإعلام **الرسمي التابع للنظام الحاكم المؤيدين** لها بأنهم رعاع وغوغاء وأنهم من الأوباش والمخربين والجهلاء...

والضياع[١]، فابتعِد عنهم!

شعرت في كلامه بشيء من التهديد المبطن، فحاولت أن أناقشه، وكانت المظاهرة ابتعدت عن المشفى الوطني[٢] باتجاه الشرق، ولكن لا فائدة تُرجى من شخص كهذا.

والغريب أن هذا الشخص هو الآن في ألمانيا[٣] ينعم باللجوء هناك، ترك أسده وفرَّ بنفسه، ولا أعرف إن كان بقي على موقفه، أم أنّه أحبّ ديمقراطية ألمانيا واعتاد عليها وكره هُبَل سوريا؟!

غابت المظاهرة عن عيني وبقي صوتها يضج في جنبات الشارع، وبقي ابني محمد فيها إلى أن انتهت. كان يوماً عظيماً، نصرنا الله وسلَّمنا وأولادنا، ولم يحدث إطلاق نار أو قتل، إلا أن بعضاً من شبيحة النظام تهجموا على الشبان الثائرين في قلب السوق، فنالوا نصيبهم ضرباً وتعنيفاً،

(١) في إشارة بأنهم جهلاء أو غير متحضرين وأنهم أقل شأنا. في الحقيقة فقد تكاتف الجميع من المدن والبلدات والقرى وتجمعوا وهتفوا للثورة، فقد كانت جموع المتظاهرين تأتي من القرى والبلدات المحيطة بإدلب كبنش وطعوم وتفتناز، وينضمون للمتظاهرين فيها

(٢) وهو المشفى الحكومي الأكبر في المدينة.

(٣) كثير من مؤيدي النظام الحاكم والذين مارسوا التشبيح، من اعتداء على المتظاهرين والوشاية بهمن بل وحتى قتل بعضهم، سافروا إلى أوربا بصفة لاجئين!

ومضى اليوم على أحسن حال.

قلت لأخي عبيدة ليلةَ المظاهرة: يا أخي! هل من شيءٍ أعظم من الحرية؟ وهل من شيء أحلى من أن تشعر أنَّ لك وطناً تدافع عنه وتحمل اسمه وتفديه بروحك إن استدعى الأمر؟

جلسنا تلك الليلة على شرفة منزلنا المطلّ على المشفى الوطني، وعائلتنا بأجمعها متحلّقة حولنا وكأنَّه يوم عيد، الكلّ يضحك ويتكلم كيف سارت المظاهرة، وماذا فعل الأمن حيالها، وكيف كان المحافظ ينظر من طرف نافذة مكتبه وكأنه فأر علق بمصيدة. ضحكنا كثيراً وعلا صوتنا أكثر.

أمّا أمي فقد كانت تستمع إلينا بصمت وكأنها في عالمٍ آخر، كانت تنظر إلينا وكأن لسان حالها يقول: قد أفقدكم كما فَقَدَتْ الكثير من الأمهات أبناءها. كانت تطيل النظر إلينا واحداً تلو الآخر، فقد خبرت النظام وعرفت تاريخه الدموي.

وأمي تنتسب لآل «**السيد عيسى**» الكرام، وهم من أكثر العوائل التي تأذت من بطش النظام ثمانينات القرن المنصرم،

وقد ذاقوا الويلات منه. أقسمت أمي أمامنا: لئن أحياني الله إلى الجمعة القادمة فإني سأقفل الباب بالمفتاح، ولن أسمح للأحفاد بالخروج من المنزل، فهم صغار وأمامهم المستقبل، أما أنتم فكبار ولا أستطيع منعكم، ولكنّ الأحفاد سأطبق عليهم نظاماً صارماً، ولن أسمح لهم بالخروج، وسترون ماذا سأفعل في الجمعة القادمة.

قالت ما قالته، وهي في قمة الغضب والحزن، فأولاد عمومتها وأقاربها لاقَوا من هذا النظام ما لاقَوه، وهي الأمُّ والجدة، ومن حقّها أن تخاف على أولادها وأحفادها، فالنظام حين يبطش يبطش بلا رحمة، ولا يميز بين صغير وكبير.

وفي اليوم التالي توافد على ركننا الصغير في صالتنا الأصدقاءُ، بعضهم خائف من المجهول، وبعضهم ثائر يقسم أنَّ الخوف انتهى وأنَّ نظام العهر بدأ يعدُّ أيامه الأخيرة، وآخرُ متحفّظ مترقّب. لا أكتمكم سرّاً، لقد كانت أنظارنا تتجه إلى الغد، فلا نعرف ماذا يضمر لنا الآتي.

عندما كنا نلتقي قبل الثورة لم نستطع البوح بما تضمر

الأفئدة، فأكثرنا كان يسبح بحمد القائد الخالد[1]، ويحمد الله على هذه الهبة السماوية، لقد حمانا بعقله المدبِّر، وبحكمته العظيمة التي انتقلت إلينا من الأب إلى الولد. نرجو من الله أن يديم علينا النظام (عهد الأب وعهد الابن)!!

هذا ما كنَّا نُظهره لأنَّنا لا نثق بأحد، ولا نعرف من هو ابن الحرام المخبر والواشي، في أيّ شكل هو متخفٍّ، وخلف أيّ قناع متستّرٍ، هل هو سائق التكسي؟ أو جارنا بالعمارة؟ أو رفيقنا في العمل؟ أو عامل النظافة؟

إنه نظامُ الفجور، لقد استطاع أن ينخر المجتمع وأن يفرّق بين الأخ وأخيه، وأن يضع الزوجة مخبرةً على زوجها، والولد على والده[2]. لقد انقلب المجتمع بؤرةً فاسدة. نعم، عمّ الخوف قلوب الجميع، وبمجرد أن نسمع بحضور رجل أمن أو مخابرات كنا نفرش له الطريق ورداً، وكنا ننافق لكلّ صغير تافه حقير.

أمَا وقد خرجنا أمسِ في المظاهرة فقد كسرنا كثيراً من

(١) من ألقاب حافظ أسد!

(٢) لقد جند النظام كثيراً من العملاء والمخبرين، منهم من كُشف أمره ومنهم من بقي متستراً مجهولاً. وقد جرت عادة النظام أن يرسل في كل خطبة جمعة عدا المخبرين أحدَ عناصر الأمن من فرع ما ليقوم بتسجيل ما تناوله الخطيب في الخطبة، وهناك أمر مهم يسأل عنه: هل دعَا الخطيب للسيد الرئيس في خطبته؟

حواجز الخوف. هذه الوجوه الثائرة تخبرنا أنَّ عصراً جديداً قد بدأ، وبمجرد أن كسرنا الرهاب الذي في داخلنا وهتفنا مطالبين بحقوقنا على الملأ، فهذا نصر يتلوه نصر. ولكن ماذا بعد هذه «**الجمعة العظيمة**»؟ هل سنكرِّر الأمر؟ وهل سيسمح لنا نظام الأسد أن نخرج ونصرخ في شوارع مدينتنا دون أن يرمينا بالرصاص؟

وعلى غير العادة تستدعي أفرع الأمن بعضاً ممن خرجوا في المظاهرة، حيث قام أذناب المخابرات بتدوين أسمائهم وتقديمها إلى أفرع المخابرات والأمن، والتي بدروها قامت باستدعاء المتظاهرين عن طريق إخطارهم كتابياً، وباحترام غير معهود وغير مسبوق في تاريخ البعث، وبكل مظاهر اللطف تحاوروا مع المطلوبين، وبكلّ أدب سألوهم عن مطالبهم مع فنجان من القهوة. ثمَّ قام المحقّق بوداعهم على أمل أنّ الأزمة سوف تنتهي، وأنّ «إدلب» الخائفة الخانعة- كما يراها النظام- لن ترجع وترفع عصا العصيان بوجهه، وعفا الله عمَّا سلف.

لهجة جديدة، وأسلوب جديد، لم يعتده أحد من الشعب، ولم يعهد أحد من الناس هذا النوع من التعامل من قبل مؤسسات النظام الأمنية والعسكرية. قلت لأخي يومها: وراء

الأكمة ما وراءها، والأمر مريب وغير مريح. فأجاب: لابد من وجود ضغوط دولية على النظام ليتنازل للشعب هكذا، ولن يسمح العالم المتحضّر المتقدّم الراقي للنظام أن يعيد «مجزرة حماة» التي راح ضحيتها عشرات الآلاف من المدنيين من أهل السنة.

وهنا قفزت إلى ذهني ذكريات «مجزرة حماة»[1] التي بُقِرت فيها بطون الحوامل واغتصبت الفتيات والنساء، وأعدم الرجال وهدمت البيوت فوق رؤوس ساكنيها. ويومئذ سكت العالم وأبقوا أعينهم مفتوحة وكأنهم يتابعون فيلماً

(١) «مجزرة حماة» هي مجزرة حصلت في شباط من عام ١٩٨٢م حينما أطبقت القوات البرية العربية السورية وسرايا الدفاع حصارًا على مدينة حماة بناءً على أوامر من رئيس البلاد حافظ الأسد ولمدة ٢٧ يومًا من أجل قمع انتفاضة/ ثورة الإخوان المسلمين ضدّ الحكومة. أنهت المذبحة التي نفذها الجيش السوري بقيادة اللواء رفعت الأسد شقيق حافظ فعليًا الحملة التي بدأت في عام ١٩٧٦م من قِبل الجماعات الإسلاميّة السنية وعلى رأسهم جماعة الإخوان المسلمين ضدّ النظام. ذكرت التقارير الدبلوماسية الأولية الواردة من الدول الغربية أن ١٠٠٠ شخص قد لقوا حتفهم خلال هذه المجزرة؛ بينما اختلفت التقديرات التي صدرت في وقتٍ لاحقٍ إذ قيل إنّ ٢٠٠٠ مواطن سوري قد قُتل خلال الحملة وهو العدد الذي تبنّتهُ عددٌ من وسائل الإعلام الحكوميّة؛ فيما قدّر آخرون وعلى رأسهم روبرت فيسك أن عدد الضحايا قد بلغَ ٢٠٠٠٠؛ بينما قالت اللجنة السورية لحقوق الإنسان إن حصيلة الضحايا قد تجاوزت الـ ٤٠٠٠٠، كما دُمّرت أجزاء كبيرة من المدينة القديمة؛ وقد وُصفَ الهجوم بأنه «أحد أكثر الأعمال دموية التي قامت بها حكومة عربية ضد شعبها في التاريخ الحديث للشرق الأوسط». راجع الموسوعة الحرة.

لرامبو، أو لقطات تمثيل مشوقة فيُقفلون التلفاز ويُقْنعون أنفسهم أنّ كلّ ما شاهدوه مجرد خيال، وخرست منظمات حقوق الإنسان، وأدارت أوروبا وأمريكا ظهرها للحدث.

فهؤلاء الضحايا الذين ترتكب بحقهم المجزرة هم مواطنون عرب مسلمون، لا حقوق لهم ولا قانون يحميهم، وأعلى سلطة في عالمنا وهي الأمم المتحدة قامت بدفن رأسها في التراب.

أجبت أخي: منذ أن تسلم النصيريُّون الحكم في البلاد وهم يخطّطون لإذلال أهل السنَّة، فالتاريخ والأحقاد مازالت ماثلة أمامهم، وفرنسا التي كانت لها اليد الطولى بإدماج النُّصيريين في الجيش العربي السوري، والتي كانت تحميهم وتأهلهم للوصول للسلطة بعد سقوط الدولة العثمانية، فرنسا هذه مدّعية الحريّات وحقوق الإنسان لم تفتح فمها بكلمة بينما المجزرة تحدث. العالم بمجمله خرس بل ووثَّق علاقاته بالنظام من خلال سفارات آل أسد، وساعده على جمع المعلومات عن الهاربين من المجازر والناجين من القتل، والمعارضين للنظام، فإن حدث تغيّر فهو تغيّر طفيف يكاد لا يذكر.

نظر أخي إليّ مستنكراً: الديمقراطية انتشرت في العالم، والاتحاد السوفيتي انتهى إلى غير رجعة، ومنصات التواصل الاجتماعيّ أصبحت في كلّ بيت، والإعلام دخل كل حيّ وحارة، ولا يمكن لآل أسد أن يخفوا الحقيقة هذه الأيام.

قد لا تأبه الحكومات والأنظمة لما يجري لنا، ولكنها ستخاف من شعوبها وستحاول أن ترضي الرأي العام لديها. لذا اعتمادنا على الله عز وجل أولاً، ومن ثمّ على صحوة أهلنا وشبابنا، وبعدهم على شعوب العالم في تحضّرها ونصرتها لحقوق الإنسان.

أجبته: سنكون مع الجماعة، ولن نخذل بلدنا ولا أهلنا. وعلى الله التكلان.

في هذه الأثناء يدخل أحد الأشخاص -وهو حزبي قديم يكره رجالات السلطة ولكنه يخافهم- أمسك بيدي وجذبني إلى جانبٍ قَصِيٍّ، قائلاً:

البارحة ابنك محمد كان في وسط المظاهرة. فأجبته: وما أدراك؟ قال: هناك كاميرات[1] صورت المظاهرة بأكملها،

(١) أشار فراس طلاس نجل وزير الدفاع الأسبق مصطفى طلاس بأن أفراداً من آل ميقاتي قد أخبروا بشار أسد بوجود كاميرات عالية الدقة، تصور عددا كبيراً من الوجوه بحيث يسهل التعرف إليهم.

وابنك مازال صغيراً، فإن اعتقل فسيقضي حياته في السجون. أرجوك رجاءً حاراً أن تُبْعِدَه عن هذا الطريق، وأن تعيده إلى دراسته وإلى مدرسته، فقد يؤثر على حياتك وعلى حياة باقي أسرتك.

نظرتُ له بابتسامة باردة وهو يرتجف كأنَّما سقط في بحيرة متجمِّدة في يوم بارد، ورددت عليه: وإذا لم ندافع عن مستقبل وطننا وأمتنا بأولادنا وأنفسنا فمن يفعل؟! أجابني بانفعال: فليفعل غيرك، ابنك غالٍ عليك وعلينا، ولولا أنّي أحبك ما نصحتك.

أنهيت هذا الحوار وشكرته وربتُّ على كتفه قائلاً: قدَّرَ الله وما شاء فعل، والله لن أكون إلا في مقدمة الثائرين، ولن أخذل بلدي وأهله وأهلي، وسأكون معهم على الخير والشرّ، وإنَّ روحي وروح أولادي وزوجتي وأهلي وأموالي ليست بأفضل من أرواح الناس وأموالهم. نظر إليَّ خائباً وكأنّه خسر معركة الحياة للتو، وهزّ رأسه وحرك فمه ليقول شيئًا ولكنه أحجمَ. رجعنا بعدها إلى ركننا، لننضم إلى البقية ونتابع الحديث في هدوء حتى لا يسمع زبائن المحل.

حراك غريب لم أسمع به منذ ثلاثين عاماً. هناك نقاشات

يوميـة في الحـارة، وأمـام الصالـة وفي البيـوت وفي الأسـواق وفي كلّ مـكان، فالقـادم عظيـم والتغيير لـن يـترك أحـداً إلا وسـيدخله في دائرته شـاء أم أبى.

أُعلـن عـن مظاهـرة سـتخرج الجمعـة التاليـة منطلقهـا جامـع شـعيب[1]، ولكـن عناصـر الأمـن وأزلام حـزب البعـث ومخابراتـه كانـوا علـى أهبـة الاسـتعداد وهـم يحاولـون ثنـي النـاس عـن التظاهـر، فيعطـون الوعـود، ويسـتعطفون كلَّ مـن يرونـه، حتّـى أنهـم هـددوا الشـعب بحـرب أهليـة لا تبقـي ولا تـذر. ومقولـة «**الأسـد أو نحـرق البلـد**»[2] شـعار مرفـوع منـذ أن تسـلمت هـذه العصابـة زمـام الأمـور. وبـكلُّ مـا يملكـه النظـام مـن مكـر ومـن خبـث ودهـاء تابـع محاولاتـه لصـد الثـوار في بدايـة الحـراك وكسـر إرادة التغييـر، وتحطيـم أيّـة محاولـة بنـاء لهـذه الأمـة، وإخراجها من حالـة الهذيان التي تعيشه.

ويقـترب يـوم جمعـة آخـر وتشـخص أبصارنـا وتتعلـق بـأيّ مسـجد قـد يفـكّ قيـداً آخـر مـن قيـود الـذل ويكسـره. وكمـا

(١) يقع في حي الضبيط بالجهة الغربية من مدينة إدلب. بني بعد العام ٢٠٠٠م

(٢) مـن المؤكـد ان هـذا الشـعار ذاع وانتشـر بـإرادة مـن نظـام أسـد نفسـه، وبتنفيـذ أجهـزة المخابـرات وعلـى أيـدي البعثييـن والشـبيحة. ولعلـه الشـعار الوحيـد الـذي عملـت عائلـة أسـد وأتباعهـم علـى تحقيقـه، وقـد وصلـوا إلـى مراحـل متقدمـة جـداً من إحراق البلد!

وعدت أمي فقد أقفلت الباب، ومنعت ولَدَيَّ من النزول لصلاة الجمعة، وهما بدورهما حاولا مصِرَّين على النزول من الطابق الرابع عبر الشرفة، ولولا ستر الله ومنعهما عن طريق زوجتي لحصلت كارثة بعائلتي الصغيرة.

كانت الصلاة في كلّ مساجد «**إدلب**» هادئة، الشوارع شبه فارغة، ولا خبر عن مظاهرة، إلا ما حصل في جامع «شعيب»، إذ قام «منذر سيد عيسى[1]» بالصياح «**الله أكبر**» أملًا منه في أن ينتفض الناس، فقام أعضاء حزب البعث بإسكاته ومنعه من الحراك، وقام بعض الناس بالصياح عليه وهم يرددون: هل تريدون أن تخربوا البلد؟

ومضيت في حوار مع النفس، إذ لم أفهم ماذا يقصدون بهذه العبارة! فهل في الدول التي يتغير الحاكم فيها عن طريق الانتخابات، أو بسحب الثقة منه، أو بالاحتجاجات، أو بأية طريقة أخرى تخرَب البلد ويُشَرَّدُ أهلها؟ كيف وصلت هذه الفكرة لهؤلاء المعتوهين؟ نحن لا نريد ببلدنا سوءاً، نريد فقط أن نعيش كما يعيش الناس في بقاع الأرض، وأن نتكلم كما يتكلم المواطنون الأحرار في كل بلد، وأن نكون أسياداً

(١) منذر سيد عيسى معارض قديم يملك معملًا لتصنيع البلاط، له ابنان من الشهداء أحدهما قُتل عند دخول الجيش إلى مدينة ادلب.

على بلادنا. فمن أين جئتم بفكرة خراب البلد؟!

على كلٍّ فقد حُلَّ الإشكال في المسجد، وذهب كلّ شخص في سبيله، وبدأنا التفكير في جمعة جديدة.

قد يسأل القارئ الكريم: ومالكم وليوم الجمعة[1]؟ ألا يمكنكم التظاهر في يوم آخر؟ ولكن من يستطيع أن يجمع الناس في مكان غيرِ المسجد؟ وهل يستطيع المواطن السوري أن يقف بالشارع مع عشَرة من أصدقائه، دون أن تأتي سيارة المخابرات وفيها كلاب أسد، لتعرف ماذا يفعلون؟

طبعًا من المنطقي أنه ليس لدينا بديل عن يوم الجمعة. ويستمرُّ البحث عن طريقة لإحياء المظاهرات، ولكن الناس خائفون، كلٌّ يريد أن يفرّ بجلده، فالخوف متأصِّل في قلوب الجميع، والرعب لابد أن يخيم على شعب عاش جلّ حياته في مملكة الرعب.

وفي صباح اليوم التالي أخبرني جاري في السوق أن أحد الجنود من أبناء مدينتنا سيُشَيَّعُ جثمانه من مسجد شعيب، وأنه قتل في دمشق، فسألته: وكيف قتل في دمشق؟ فأجاب:

(١) يدعي أدونيس أنه يؤيد الثورة، ولكنه لا يؤيد ثورة تخرج من الجوامع، يقول بالنص «لا يجوز أن تخرج المظاهرات المدنية من الجوامع». راجع حوار إذاعة مونت كارلو مع أدونيس، عبر الرابط PxXuUP/wp.u٢//:sptth

يقولـون: إنَّ أحـد الإرهابيـين قتلـه. ولكـن يبـدو في الحقيقـة أن النظـام قتلـه خوفـاً مـن انشـقاقه عـن الجيـش. فأخبرتـه حينهـا بأننـي سـوف أذهـب إلـى المسـجد، وأنـه مـن الضـروري أن يذهـب الكثير ممن يأمل بإشعال الثورة.

انتظرنـا أنـا وأخـي عنـد بـاب مسـجد «شـعيب»، فـإذا بالجثمـان يتأخـر قليـلاً ثـم يـأتي علـى أكتـاف أشـخاص يصرخـون بحيـاة القائـد (بشـار أسـد)! يخيـب أملـي أمـام هـول المشـهد، نفـاق في الحيـاة ونفـاق بالمـوت؟ ألا يتعلـم أولئـك النـاس مـن دروس الماضـي؟ ألا يعرفـون أن دور أبنائهـم قـادم أن يُحملـوا علـى الأكتـاف كمـا حُمِـل هـذا المسـكين؟ اللهـم اهـدِ قومـي فإنهـم لا يعلمون.

أتـرك وأخـي التشـييع ونذهـب لنعلـم لاحقـاً أن الجمـوع اختلفـوا فيمـا بينهـم علـى طريقـة الدفـن، وأنهـم هتفـوا ضـد النظـام، ولكـن ذلـك لـم يحـدث في المسـجد، أمَّـا وقـد حـدث عنـد المدفـن خـارجَ البلـد، فهـذا يفـرِّج عنـا بعضـاً مـن الكمـد والغيـظ الذي في صدورنا ضـد النظام.

❊ ❊ ❊

ريف إدلب

أمَّا «ريف إدلب» الكبير فكان سبَّاقًا إلى المظاهرات، فـ«جبل الزاوية» و«معرة النعمان» و«سراقب» و«بنش» و«طعوم» بدأت فيها علائم العصيان، وانتشرت فيها المظاهرات كانتشار النار في الهشيم، و«إدلب المدينة» مازالت خائفة. وفي صباح أحد الأيام يطير إلينا خبر أن أهل الريف سيدخلون المدينة ليقتلوا أهلها. ويتناقل الخبرَ عناصر المخابرات وينشرونه في الأسواق، ويخبروننا أنّ علينا إغلاقَ محلاتنا، فأهل الريف قادمون إلينا.

تُغْلَق أبواب الدكاكين في شارعنا، ولكنّني رفضت أن أغلق صالة الألبسة، وأنا في محاكمة الخبر، إذ ماذا فعلتُ لأهل الريف حتى يقتلوني؟ هم مسلمون مثلي، ولي فيهم أصحاب وأحبَّة كثر... أنا لا أصدق هذا أصلاً. وماهي إلا ساعات وينكشف زيف الخبر، ويظهر غباء القائمين على أفرع المخابرات، فأهل الريف ما كانوا يومًا قتلة، ولا أهل المدينة يستحقون القتل!

وعندما أراد أهل الريف أن يستنهضوا أهل المدينة جاؤوا إليها من طريق مدينة أريحا[١]، وقبل معسكر الطلائع[٢] فتحت قوات الهمج الأسدي النار عليهم، وأردت العشرات بين قتيل وجريح. فيا رب كيف السبيل إلى الخلاص!

هذه الجمعة سيأتي شُبَّانٌ من «سرمين»[٣] لِيُصَلّوا في جامع «سعد بن أبي وقاص» داخل المدينة، لعلَّ أهل «إدلب» يتشجعون ويتركون الخوفَ إلى غير رجعة، وقد رتّب واتفق نشطاء المدينة مع ثوار سرمين.

حين علمت بذلك قلت لمن أخبرني: هذا جيد، سنكون هناك إن شاء الله.

---

(١) تبعد أريحا عن إدلب نحو ١٥ كم، وتقع على الطريق الواصلة بينهما بلدة المسطومة.

(٢) معسكر المسطومة، المعروف سابقاً بمعسكر (الطلائع) يتربع على مساحة جغرافية كبيرة بين مدينتي إدلب وأريحا، تبلغ مساحته حوالي ٢ كم متر مربع، ويحوي العديد من الخيام الإسمنتية المسبقة الصنع والمستودعات. اتخذ منه نظام أسد معسكراً لقواته. سابقاً كان هذا المعسكر يستخدم لتدريب تلاميذ منظمة (طلائع البعث) الرديفة لحزب البعث، قبل أن يكون مصدراً للموت بعد اندلاع الثورة، عقب تحويله لواحدة من أكبر قلاع قوات النظام في منتصف عام ٢٠١١م.

(٣) بلدة تاريخية قديمة تبعد عن مدينة إدلب ٧كم وتقع على الطريق الواصلة بين إدلب وسراقب.

وفعلاً أتى الشبان إلى المسجد الذي صلّيت فيه، وبعد أن سلَّم الإمام فإذا بشبيحة أسد وخنازير حزب البعث لنا بالمرصاد، تهجموا علينا مباشرة، ومنعونا من التجمّع، فتفرَّقت المظاهرة إلى عدّة تجمعات، وانتهى اليوم بالفشل!

لم تَخْبُ جذوة الأمل، ولم تفتر الهمم، ولم يفلّ العزم، وسنبقى نحاول. فما خسرناه في عشرات السنين لن نحصل عليه بأيام. سنصبر ونحتسب ونحاول حتى يهيئ الله لنا من أمرنا رشداً، ويجعل لنا مخرجاً.

وذات مرة التقيت بأقارب لي من آل «السيد عيسى» خارج المدينة، في البساتين والمزارع المحيطة، واتفقنا على الخروج في أقرب جمعةٍ بمظاهرة من مسجد «الروضة». وكانت الخُطَّة ألّا نمشي في الطرقات، بل نضع حائط المسجد خلف ظهورنا، ونقابل رجال الأمن بوجوهنا. وفي يوم الجمعة الموعود ذهبت برفقة أخي وولدي إلى مسجد الروضة [1] حسب الاتفاق المسبق، وانتظرنا حتى تنتهي الصلاة، وما إن سلم الإمام حتى صاح بعض أبطال ثورتنا بالهتاف الذي يزلزل

(١) يقع المسجد في حي القصور، بني في السبعينات.

عـروش الطغـاة: «**الله أكبـر ...حريـة**»[1]، وردّد جميـع مـن في المسـجد خلفـه. كان الشـبيحة وبلطجيـة النظـام خـارج المسـجد يقفـون بانتظارنـا، ومـع خـروج الثائريـن حـاول الشـبيحة إخافتنـا، ولكـن رجـال الثـورة تصـدّوا لهـم، ولقنوهـم درسـًا، وجعلوهـم يفـرون كفئران لا يعرفـون طريقًا.

وسـار الأمـر علـى أحسـن حـال، فالجمـوع كبيـرة ونحـن نـردد صيحـات الحريـة ونكبِّـر. وماهـي إلا دقائـق حتـى غـرَّ المتظاهريـن عددُهـم، وتركـوا أماكنهـم، ومشَـوا في شـارع «القصـور»[2]، فقلّـت الأعـداد، وبقـي الكثيـر مـن المصليـن في أماكنهـم قـرب المسـجد. ودون سـابق إنـذار هجـم علـى المظاهـرة مجموعـة مـن الأمـن العسـكري ومعهـم سـيارة البلديـة (صهريـج ميـاه) ترشـنا بالميـاه، ورجـال الأمـن يضربوننـا بالهـراوات، فتفرقنـا في الشـوارع الجانبيـة علـى غيـر هـدى، إلـى أن غِبنـا عـن عيـون عناصـر الأمن وعدنا إلى المنزل.

حيـن وصلـت المنـزل قلـت لأخـي بحرقـة: والله عيـب علـى

(١) مـن الملاحـظ أن هـذا الشـعار (الحريـة) كان مطلـب الثائريـن، ولـم يكـن هنـاك مطالب أُخرى يعجز النظام عن تلبيتها!

(٢) أحد الأحياء الحديثة والراقية في المدينة.

شباب «إدلب» ما حصل! هذه الجموع ليست بالقدر المؤمّل من أهلنا في إدلب. علينا أن نخرج بعشرات الألوف. ففي كلّ مرة نفشل أن نفعل شيئًا، ودماء السوريين في باقي المحافظات والأرياف تملأ الشوارع وتستصرخ كل صاحب ضمير حيّ. فإلى متى؟!

❊ ❊ ❊

الشعب يريد إسقاط النظام

مضى يومان، وإذ بي أتلقى هاتفاً من الأخ «محمد منُّون»، وهو من الشبان الشجعان، وسبق له العمل معنا في صالة بيع الألبسة الرياضية. وفي الاتصال يُسمعني شيئاً لم يكن يخطر ببالي، إنها أصوات تهدر بالهتاف العظيم «**الشعب يريد إسقاط النظام!**». وذهلت مما سمعت، ما هذا الكلام الذي لم نجرؤ إلى الآن على البوح به؟ فكلُّ مطالبنا كانت «**الحرية**»، فمن استطاع أن يفكّ القيد، ويكسر صمت الناس ويحرر حناجرهم؟ أجابني مغرّداً فرَحاً: «نحن في الحارة الشمالية من المدينة».

وهذه الحارة لمن لا يعرفها هي الحي القديم في المدينة، لذا فإن أزقتها ضيقة ومتشعبة، ومن الصعب على رجال الأمن ومخابرات أسد الدخول إليها، خوفاً على حياتهم.

ركضت نحو أخي قائلاً له: هلمَّ بنا، فالحارة الشمالية تهدر بصيحات الحقّ. ركبنا سيارتنا منطلقين إلى حارة العز والكرامة. أوقفنا السيارة بعيداً عن أحد مداخل الحارة، وتابعنا مشياً على الأقدام، فإذا بنا نرى كلاب السلطة يقفون

على مداخل الحي الشمالي يمنعون الناس من الاقتراب، وقفنا مدة ليست بالطويلة ثم عدنا.

نعم! قافلة الثورة لدى أهل «إدلب» المدينة انطلقت، ولن تقف حتى تصلَ إلى مبتغاها. وبالصبر وبالثبات وبالعقيدة سنواجه أحد أعتى أنظمة الحكم في بلدان العالم. ولن نترك حقوقنا مهدورة بعد اليوم، فهذه الثورة هي نقطة انطلاق وتحوّل إلى عالم العدل والمساواة، هي لحظة فارقة في تاريخ بلدنا.

قلت لأخي: لقد عاد الأمل إلى نفسي، وملأ التفاؤل قلبي، فسماء «إدلب» قد سمعت اليوم كلمات لم تسمعها منذ ثلاثين عامًا، «إسقاط هذا النظام من الرأس إلى القدم، ورفعُ الظلم»، فمن كان يقدر أن يبوح بهذه الكلمات سابقًا؟ ولو قالها أحد لجعلوا منه ومن أهله ومن معارفه أشلاءً ممزقة، ولرميت أجسادهم إلى كلاب البراري، أو لأذيبت بالأسيد.

منذ أعوام مضت اعتقل أحد أقاربنا في دمشق بتهمة تشكيل خليّة دينيّة، وذهبنا لزيارة أبيه والتهوين عليه. وقد أخبرني أن السبب الحقيقي هو خلاف بينه وبين فتيان من

الطائفة النصيرية الحاكمة[1].

سألته: في أيّ فرع هو؟ فأجاب: في فرع الأمن السياسي. فسألت: وهل أجريت له محاكمة؟ فأجاب: أشهرٌ طويلةٌ ونحن لا نعرف شيئًا عنه، لا ندري هل تمت محاكمته أم لا. وإذا تمت محاكمته، فكم سنة سيقضي في سجون الطاغية، لا ندري؟ قلت له: فلتذهب إلى فرع الأمن السياسي في «إدلب» ولْتَسْأل عنه هناك! فرمقني بنظرة، وقال: وهل آمن على نفسي إن أنا ذهبت؟ أطرقت وكأنني ارتكبت خطأً، وقلت له: معك حقٌّ، إنهم أنذال، ليس لهم عهد ولا ذمة، ولا يؤمن جانبهم. حماكم الله وردَّ غائبكم عليكم وألبسكم ثياب الفضيلة والصبر.

خرجت من عنده متضايقًا حزينًا على شباب بلدي ومثقفيه ومبدعيه، فإذا بأحد الجيران -وهو صديق لي- يمسك بي ويقول برعب واضح: ماذا تريد من البلد؟ ولماذا تريدون الثورة على النظام؟ حالتك المادية جيدة، وعملك متطوّر، إلى أين تريد أن تصل؟ فرددت عليه: واللهِ إني مستعدٌّ

(١) كذلك دأب أبناء الطائفة العلوية مع غيرهم، فإن حدث خلاف لسبب ما فإنهم يكتبون بمن خالفهم تقريراً ويرمونه بتهمة ما، كشتم الرئيس، أو الانتماء إلى جماعة إرهابية أو دينية، أو إهانة رموز الدولة... فيعتقل في أحد أفرع المخابرات!

أن أخسر عملي وتجارتي وأولادي وأسرتي ونفسي، على أن تنجح هذه الثورة، ونتخلَّصَ من هذا الإرهاب الذي أذاقنا الويل وجعل حياتنا جحيماً. إن نحن متنا فلتحيا أجيال وطني بخير، ولْيَنْمُ ياسمينه فوق قبري ليخبرني بأن حكم النصيرية قد زال، فننعمَ نحن بالعدالة والحرية والكرامة!

وبإصراري الغريب الذي لم أعهده من نفسي قبل اليوم، تركني الرجل متحيراً في أمره أكثر من حيرته في أمري، ذلك أنه يكره النظام ولكنه يخافه، ويحبّ الخير والعدل وأن يعيش في بلده معززاً مكرماً، ولكنه يعرف أنّ الطريق طويل والزاد قليل، ويدرك أننا ضعاف وجدنا أنفسنا بين أنياب وحوش لا تعرف الرحمة. فتركني ورجع إلى متجره مفكِّراً مهموماً يسأل الله حسن الخاتمة..

بعدها تطوّرت الأمور، وأصبحت المظاهرات تخرج بشكل يوميّ في الحي الشمالي، وبات الأمر أكثر إرباكاً وحيرةً لرجال أسد، ثم أصبحت المظاهرات شيئاً فشيئاً تتمدَّد إلى الأحياء الأخرى.

وفي أحد الأيام أتانا خبرٌ أن ضابطاً برتبة ملازم من «إدلب» انتحر في المنطقة الشرقيّة، وسيشيع جثمانه من

الجامع الملاصق لمنزل قائد الشرطة على طريق أريحا، فأجبته: ومالي وللمنتحرين؟! لن أخرج في جنازته وتشييعه فهذا الأمر لا يهمني. همس أخي في أذني: ولكن الشائعات تقول بأنَّ أفراداً من العصابة النصيرية قاموا بقتله، ولم يمت منتحراً، فأجبته: ماذا تقول؟! إذا كان الأمر كذلك فهو شهيد، وسأذهب بكلّ تأكيد في جنازته.

لم يسلِّم رجال الأمن جثة الشاب لأهله إلا في المسجد، وأجبروا أهل المغدور على عدم فتح التابوت إلا في المقبرة، وعلى أن يغسّله شخصان فقط، ووافق الأهل مُكْرَهين، إلا أن وجود الشباب الثائر أعطى دفعة قوية لهم، فطلبوا طبيباً شرعياً ليكشف عن أسباب الوفاة، فتنصل رجال الأمن وهربوا من المسجد، وبعد عدّة اتصالات مع قيادة الشرطة أرسلوا طبيباً شرعياً لينهوا هذه الأزمة.

فبعد الكشف عن جثة الملازم أعلن الطبيب الشرعي أنه مات بثلاث رصاصات غادرةٍ من الخلف[1] على بعد مترين!

(١) أفادت تقارير كثيرة بأن كثيراً من العسكريين قُتلوا بطلق ناري من الخلف. حتى أن رئيس وزراء تركيا في ذلك الوقت السيد « رجل طيب أردوغان» تحدث أمام أعضاء البرلمان التركي بأن جنوداً سوريين يُقْتَلون من الخلف، في إشارة إلى أن نظام أسد من يفعل ذلك.

إذاً فالشاب -رحمه الله- لم يمت منتحراً كما ادعى رجال الأمن، ولم يكتفِ نظام الإجرام بأن قتله، بل وأساء إلى سمعته فاتهمه بأنه مريض نفسي وانتحر.

غُسّلَ المغدور، وقصدنا أطراف المدينة والنعش محمول على الأكتاف، والجموع تهتف للشهيد وإسقاط النظام والخونة، لا خوف بعد اليوم. قهر السنوات انتهى، وعصر الثورة يقبل فاتحاً ذراعيه ليضمّ كلّ من أحبَّ الحريّة. فليسمع بشار أسد هتافاتنا، ولتسمع مخابراته نداءاتنا. سنحطم الأصنام في الميادين والساحات، وسنصل إلى حي المهاجرين حتى نحطم الصنم الأكبر.

دُفن الشهيد ودُفن الكثير من الخوف، فمع كل صباح يتحطّم أحد أصنام اللات والعزّى، ومع كلّ إشراقة شمس يعلو بريق النصر ويعلن أن هزيمة المحتل الأسدي باتت قريبة. إني أرى النصر قادماً مع الصبح، «أليس الصبح بقريب؟!»

❊ ❊ ❊

أوّل شهيد

ولا يمكن النظامَ أن يدعَ الأمور تسير كما نريد، فقد وصل اليوم خبرٌ مفاده أن أهل بلدة «سرمين» قتلوا ثلاثة شبان من عائلة الظاني. وقيل: إن أهل سرمين قتلوهم لأنهم مؤيدون للنظام!

جاءني جاري قائلاً: ما هذا الخبر المشؤوم؟ وماذا فعل القتلى غير أنَّهم عمّال يكتسبون رزقهم بعرق جبينهم؟ وكيف عرف أهل سرمين أنهم عملاء للنظام حتى يقتلوهم؟

ابتسمت متألمًا حزينًا، وأيقنت أن النظام الخائن وراء الفتنة هذه، وأنه يريد أن يوقع البغضاء والشقاق بين أهالي الريف والمدينة، يريدها حربًا أهلية بين أهل السنة أنفسهم. أجبت جاري: يا محترم! ليكن عقلك كبيراً ولتكن واعيًا، فهذه من أفعال النظام وسمومه، بصماته واضحة على الجريمة، إنه لا يأبه لمن يموت وكم سيموت، ما يهمّه أن يستمرّ هو وزبانيته وطائفته في حكم أهل سورية وقهرهم.

أمُّ هؤلاء الشباب الثلاثة كانت فقيرة مسكينة تعمل في

تنظيف البيوت وسلالم العمارات. ووافق أنها كانت تنظِّف من بين العمارات عمارتَنا. اصطحبْتُ زوجتي وذهبنا إلى منزلهم الواقع في طرف المدينة، سابقين بذلك قنوات النظام حتى لا ينتهزوا الفرصة لصالحهم. طيَّبت زوجتي خاطر الأم المكلومة وهدَّأت من روعها، ووضحت لها أنّ النظام هو من قتل أولادها، وأن المصلحة الوحيدة للنظام هي قتلهم قصْدَ الفتنة بين أهل المناطق المتجاورة، أو بين أهل الريف وأهل المدينة.

وكان أن تبرأ ثوار سرمين وأهلها من الجريمة واستنكروا هذه الفاجعة التي ألمت بهذه العائلة الفقيرة المعْدِمة، وقد تَكَشّفَ للجميع أن النظام المجرم القاتل السفاح هو من قام بهذه العملية النكراء[1].

❊ ❊ ❊

الأمور تتعقد، والأحداث تتوالى والأخبار تأتي من المحافظات الأخرى كدرعا وحمص. وفي مدينتنا زاد نشاط أجهزة الأمن لقمع المظاهرات. وعليه اقترح بعض الشبان،

(١) هذا ديدن النظام منذ تأسس، فقد كان يفتعل التفجيرات أيام الثمانينات ويتهم جماعة الإخوان المسلمين بها. وقد كرر جرائم القتل في مدينة إدلب إبان الثورة، وممن قتلهم المحامي العام نضال غزال!

الذين تولوا زمام تنظيم المظاهرات بأن نخرج من عدة مساجد يوم الجمعة، وأن نجتمع قرب مسجد سعد بن أبي وقاص حتى نفرّق جهود عناصر الأمن.

وفعلاً دخلت مسجد الفرقان مع أخي وولدي فإذا بخطيب جديد من مدينة أريحا، يحلُّ محلّ الإمام السابق، خطب خطبة قصيرة أنهاها بالدعاء[1] للرئيس أسد -كما جرت العادة- فصاح المصلون عليه، وخرج البعض من المسجد رافضين الصلاة وراء هذا المنافق، وتحلق بعض أصحاب الرأي حول الإمام لحمايته وإخراجه من الباب الخلفي للمسجد خوفاً من فتنة قد تقع، وخوفاً من أن يسفك دم مسلمٍ. بعد أن كادت الأمور تخرج عن السيطرة في

(١) من التقاليد التي رسخها نظام أسد في المساجد أن ينهي الخطيب خطبته بالدعاء للرئيس، وهذا يعني ولاءه للنظام وللحاكم. وكثيراً ما ترسل الجهات المخابراتية والأمنية، عدا المخبرين، عنصراً تابعاً لها مهمته مراقبة خطبة الجمعة وتدوين العناوين التي ناقشها الخطيب، وهل دعا للرئيس أو لا. بعض عناصر الأمن كانوا من الطائفة النصيرية فما كانوا يحضرون الصلاة، وكانوا يزورون المختار أو أمين الحلقة الحزبية أو ما شابه، في الحي أو القرية، ويسألون عن الخطبة وعن دعاء الخطيب للرئيس. وأذكر مرة أن عنصر الأمن المكلف بذلك في قرية طعوم سأل المختار: -كيف الوضع يا مختار؟ المختار: كل شي تمام. - العنصر: هل دعا الخطيب للسيد الرئيس؟ المختار بلهجته الإدلبية المحببة: إي أشو دعا! إي أشو دعا! (يعني دعا له كثيراً) زلزل الجيْمِع (يقصد الجامع)! عندها سجل العنصر ذلك في الكراسة وخرج. ولكن ما إن قامت الثورة حتى تخلصنا من ذلك والحمد لله حمدا كثيراً.

المسجد هرب الإمام وصلى أحد الحاضرين بنا صلاة الجمعة.

وانطلقت المظاهرة بعد كلمة «**الله أكبر**» متجهة نحو مسجد سعد بن أبي وقاص، وفي الطريق لحق بها باص ممتلئ بشبيحة أسد فأطلقوا عليها الرصاص وفرقوها، ومضوا مسرعين إلى ذلك الجامع الذي علا فيه نداء «**الله أكبر... حرية**».

وبعد أن قتل رجال الطاغية شاباً قبل انتهاء الصلاة، انقطع ما بقي من حبائل مع النظام وانقطع كلّ أملٍ في أن نجد منفذاً إلا الثورة، فقد دقّ النظام آخر مسمار في نعشه، ولم يعدْ لأحد من أهالي المدينة أن يتنصل من مسؤوليته تجاه ما حدث، فليس بمقدوره أن يقول: لا علاقة لي. لقد كان هذا الشهيد هو نقطة بداية لإنهاء الحياد، ولإنهاء كلّ علاقة مع النظام.

وفي طريقي رأيت «زياد سيد عيسى»، وهو معتقل إخواني سابق، وكان نشطاً وفاعلاً في الثورة منذ بدايتها، وكانت لنا لقاءات كثيرة سابقة. حين ركب معنا السيارة سألته: من الشهيد؟ فقال: لا أعلم اسمه. وفي الطريق أوقفنا أحد معارفنا

ليخبرنا أن أوّل شهيد في مدينة «إدلب» هو الشاب «محمد سيد عيسى». نعم لقد قتله المجرمون، أزهقوا روحه دون ذنب ارتكبه، سفكوا دمه لأنه قال: لا. قتلوه لأنه طالب بحريته وكرامته. وكان حزني مضاعفاً لأنه قريب لنا، ومعرفتنا بأهله وثيقة.

قصدنا بيت عمِّه فرأينا الجموع الغاضبة تنتظر التشييع. كلّ حواجز الأمن دخلت ثُكُناتها في ذلك اليوم، فالقتيل ابن أحد أكبر العوائل في المدينة. ولتلك العائلة العريقة تاريخ طويل من التصادم مع الجهات الأمنية منذ الثمانينات، ذلك أن أول شهيدين في ثورة الثمانينات (الإخوان) كانا ياسر وجمال السيد عيسى- رحمهم الله جميعاً-، قتلهم جنود النظام غيلة دون ذنب فعلوه، ثم نكّلوا برجال العائلة وحبسوا شبابها. واليوم نرى التاريخ يعيد نفسه باستشهاد شاب من العائلة نفسها مرة أخرى، فتجمهرنا أمام بيت عم الشهيد، وهتفنا مطالبين بإسقاط النظام ومنادين بالحرية بكلّ جرأة.

شيّع جثمان الشهيد إلى مقبرة آل السيد عيسى حيث أراضيهم الزراعية، وكان التشييع حافلاً، والمشهد مهيباً، يا الله! ما هذه السيارات الكثيرة؟ وما هذه الجموع الغفيرة؟

هل من يشيِّع اليوم رئيس أو زعيم أو بطل رياضي معروف في كل العالم؟ قال من معي بالسيارة: إنّه شاب لم يتجاوز الواحد والعشرين من عمره، ولكنه صدق الله فصدقه.

إنه شاب لم ير كثيراً من تجبر النظام، ولكنّه سمع عن تاريخه الإجرامي، فأبت نفسه الكريمة أن تكون خانعة ذليلة أمام الطاغية وأذنابه، كما أن أحد أقاربه سمعه يقول: اللهم اجعلني وقوداً لهذه الثورة.

هذا الشاب الصغير وكثير من أمثاله علمونا نحن الكبار أن قيمة الإنسان ليست بالعمر الذي يعيشه بل بالفعل الذي يقدمه، والأثر الذي يتركه. نعم لقد ترك هذا الشاب أبلغ الأثر في نفوسنا، فقد عَلَّم كل من في إدلب أن الحياة لا تشترى إلا بالموت والتضحية، وأعطى درساً لكلّ من يخشى النظام وبطشه و«يمشي الحيط الحيط ويقول يا رب الستر»، أَفهَمَ كلّ صغير وكبير أن الحياة قصيرة وأن الباقيات الصالحات هي خيرٌ ثواباً وخيرٌ مردّاً.

نعم يا أصدقاء! هذا الشاب أيقظنا من سبات عميق. وإنني اليوم أنظر إلى هذه الجموع المقبلة من جميع القرى المحيطة بمدينة «إدلب» وهم لا يستطيعون دخول المدينة

حتى لا يعتقلوا، حيث رجال النظام[1] في كلّ مكان هناك، أنظر إليهم ونفسي تقول: ستدخلون «إدلب» قريباً، وسنضع أيدينا بأيديكم، وسنبني بلدنا ووطنا على كلمة الحق والعدل إن شاء الله.

❊ ❊ ❊

(١) مع بداية الثورة وإنهاء سلطة النظام في الأرياف، أقام نظام أسد الحواجز العسكرية ونقاط التفتيش على مداخل المدينة، فكان هناك حاجز تفتيش عند مدخل المدينة من الجهة الشرقية حيث القرى والبلدات مثل معارة النعسان وتفتناز وطعوم وبنش (طريق إدلب حلب القديم). وأقام حاجزاً عند مدخل المدينة حيث القرى والبلدات مثل سرمين وسراقب (طريق إدلب حلب الجديد). وهكذا عند مدخل المدينة من جهة معرتمصرين، ومن جهة أريحا، ومن جهة سلقين.

المنتخب الوطني لكرة الطاولة

لي مع المنتخب الوطني لكرة الطاولة قصة طويلة، فقد كنت بطلاً سابقاً في كرة الطاولة، وأصبحت مدرباً للمنتخب الوطنيّ في كرة الطاولة أيضاً، ولديّ لاعبون على مستوى منتخبات سورية من كلّ الأعمار.

ولي ارتباطات واسعة بنادي «أميّة» ورئيسه وأعضائه، وكنت واحداً من أعضاء اللجنة التنفيذية[1] للاتحاد الرياضي في فرع «إدلب»، وقد انتُخبت عن المستقلين ولم أنتسب إلى حزب البعث يوماً واحداً في حياتي. وسبق أن رشَّحت قيادةُ حزب البعث يومها المخبر «جهاد دويدري»[2] رئيساً لتلك اللجنة.

وفور تسلّمه مهامه جمَعَنا أمين فرع حزب البعث- ولا

(١) في عام ٢٠٠٩م انْتُخِبْتُ في اللجنة التنفيذية عن المستقلين، وبقيت أربعةَ أشهر ثم فُصِلْت بقرار من القيادة القطرية.

(٢) جهاد دويدري مدرس لمادة التربية الرياضية. عمل مدّة سائق تكسي يوصل طلبات الطعام إلى البيوت بعد أن اتفق مع أحد المطاعم. خدمته العسكرية الإلزامية كانت في فرع الأمن العسكري بحلب. وبعد ذلك بقي على اتصال بالأمن العسكري بحيث أصبح مخبراً متعاوناً معه في إدلب. كوفئ الرجل بأن عيّن رئيس اللجنة التنفيذية للاتحاد الرياضي بمحافظة إدلب سنة ٢٠٠٩م

أذكر اسمه- هددنا بأن من يبوح بسرٍ أو حديثٍ من هذا المكان فلا يلومن إلا نفسه، ووزَّع علينا المكاتب كما يريد العميل جهاد، وأعطاني «مكتب المعاقين»، وأنا الوحيد بين أعضاء اللجنة ممن له تاريخ رياضي على مستوى الجمهورية. لا بأس فأنا هنا لأخدم أفراد مجتمعي كلهم، سواء كانوا من ذوي الإعاقات الذين أتشرف بهم، أو من الأصحاء.

وبعد عدة اجتماعات لم أستطع أن أسمع أو أجلس مع هؤلاء المتملقين، ففي كلّ اجتماع كان يقول جهاد: إنّ القيادة في الحزب أبلغته، وقيادة الحزب أمرته، وقيادة الحزب طلبت منه، فانتفضتُ في وجه قائلاً:

لدينا قوانين تحكمنا، وأنا حيادي لا يحكمني حزب البعث، وعندما تخلو الدائرة من القوانين نرجع إلى تشريعات حزبك. نظر أعضاء اللجنة التنفيذية إلى بعضهم منكرين مستغربين، وكأن ما قلته هو السهم الذي سيقتلني.

خرِس الجميع وساد السكون إلى أن قطعه المخبر جهاد قائلاً: سنؤجل القرارات إلى اجتماعٍ ثانٍ. وبسرعة البرق رفعوا تقريراً إلى الأمن العسكري، وقيادة حزب البعث

والقيادة القطرية والقيادة الرياضية بما قلته اليوم، فلقد كفرت بآلهتهم وخضت بالمحرمات واجتزت الخطوط الحمراء. وكيف لي أن أرفض أو أتجاهل قراراً يصدر عن حزب البعث؟ وكيف لي أصلاً أن أتجرّأ وأعارض؟ ومن أنا حتى أتجرأ؟ نعم، أنا المواطن الرقم في دولة لا تعترف إلا بالأب الملهم[1]، ولا قانون فيها إلا لحماية ربّ البلاد. نعم أنا -العبد الفقير لله- الذليل في مجتمع حزب البعث، تطاولت اليوم على كبرياء هذا الحزب!

يأمر اللواء موفق جمعة[2] رئيس الاتحاد العام للرياضة باجتماع عاجل مع اللجنة التنفيذية الرياضية بحضور ممثلة حزب البعث رجاء حيدر. ويجتمعون عليّ كوحوش على فريسة، يسألونني وأجيب، وعندما قلت: إن (الرئيس) لم أستطع إكمال الجملة، فقد انقض كل المجتمعين عليَّ وكأنني كفرت بالله، ليقولوا في وقت واحد: قل (السيد الرئيس)! أووف يا لسوء أدبي مع الآلهة، كيف لي أن أنسى كلمة

(١) أحد ألقاب حافظ أسد.

(٢) موفق توفيق جمعة من مواليد بلدة حوش عرب في ريف دمشق ١٩٥٢، شغل عدة مناصب رياضية وشغل منصب رئيس الاتحاد الرياضي العام من ٢٠١٠-٢٠٢٠م.

(سيد)؟ لقد زدت الطين بلة بعدم ذكر الكلمة.

هذا انتقاص من حضرة الأسد المعظم، هذا تجرؤ آخر على محرمات السيادة. ويطول حديث لواء الرياضة (موفق جمعة)، وقد عجبت من وصوله إلى رأس هرم الكيان الرياضي في سوريا. ولكن لا أحد يدري ماذا خلف الأكمة، إذ لا يستطيع أحدٌ أن يتبوأ مركزاً قيادياً إلا أن يكون مخبراً وضيعاً، أو عديم الشرف يبيع أهله بثمن بخس.

وفي جلسة الاستجواب تلك قفزت إلى ذهني ذكريات رياضية موجعة، ففي عام ١٩٨٦م اشتركت ببطولة العالم بالهند، وقد دعانا رئيس جمهورية الهند[١] يومها للقاءٍ في قصره. دخلنا ساحة القصر المليء بالزهور والحدائق الغناء والشلالات الصناعية، وخارج القصر آلاف الفقراء المساكين الذين يستعطفون الناس. نعم هكذا هي الدنيا رجالٌ في القصر وآخرون في القبر.

جاء الرئيس وأصبح يتجاذب أطراف الحديث مع من تحلّق حوله من لاعبي دول العالم، واقترب منه أحد لاعبي

(١) زيل سينغ: أو جياني زيل سينغ (٥ مايو ١٩١٦ – ٢٥ ديسمبر ١٩٩٤م) كان الرئيس السابع للهند، تولّى المنصب من ١٩٨٢م إلى ١٩٨٧م.

فريقنا فسأله رئيس الهند: من أين أنت؟ أجابه اللّاعب: أنا من سوريا، ابتسم رئيس الهند قائلاً: نعم، إنها سورية الأسد، وأثنى عليه بعبارات رنانة. هنا جرى حوار مع النفس، فمتى كانت سورية العظيمة بتاريخها وحضاراتها لآل أسد؟ وهل اختصر العالم بلادي وجمال بلادي وتاريخ موطني بهذا القزم؟

وعلى الطرف الآخر، وأنا أتمشى اقترب مني أحد الأخوة من السودان[1] الشقيق، وتجاذبنا أطراف الحديث، سألني عن الوضع الرياضي في سوريا وعن تدريباتنا وأشياء كثيرة تخصّ الرياضة السورية. وأخيراً قال: كم يعطيكم الاتحاد الرياضي بدلَ سفرٍ عن كل يوم؟ في البداية خجلت أن أخبره، فما نأخذه لا يُصدَّق، ثم همست له: يعطوننا ثمان وعشرون ليرة! فسألني: وكم تعادل بالدولار؟ فقلت: تعدل دولاراً واحداً فقط! نظر إلي مذهولاً وكأنه غير مصدق، وتمتم: دولاراً واحداً فقط؟ أجبت ببساطة: نعم، دولار واحد لا غير. فقال: وهل يكفي الدولار أن تشتري علبة كولا أو قطعة من

(١) هناك تقدير كبير واحترام يحظى به السوريون لدى الأشقاء في السودان، والعكس صحيح كذلك.

الحلوى؟ فقلت: طبعاً لا يكفي، ولكن عليك أن تعلم أننا دولة (ممانعة) نقف بوجه الإمبريالية العالمية والصهيونية والرجعية بكل قوانا، ونفدي القائد المفدّى بأرواحنا ودمائنا.

ضحكنا ضحكة جعلت من بجانبنا مستغرباً، ثم سألته: وفي السودان كم يعطونكم؟ قال لي: يعطوننا مئة وخمساً وسبعين دولاراً. قلت له مستهزئاً: بالسنة؟! قال: لا، بل في اليوم. وضحكت ساخراً، فالسودان التي يضرب بها المثل بالفقر تعطي كوادرها الذين يمثلونها في المسابقات الإقليمية والعالمية هذا المبلغ الخيالي، وسوريا ذات الاقتصاد القوي تعطي كوادرها الرياضيين دولاراً واحداً. شيء في غاية الغرابة!

* * *

وتذكرت في جلسة الاستجواب موت باسل ابن الرئيس حافظ بحادث سيارة سنة ١٩٩٤م، تعطلت الحياة في سوريا لأشهر، وأُجبر الناس على الحداد حزناً على ابن القائد الخالد. كانت ميزانية سوريا في ذلك الوقت لا تتجاوز ثلاثة مليارات ونصف مليار دولار، بينما كانت مُدَّخرات هذا

الشاب الصغير الذين بكي عليه الوطن في بنوك النمسا أربعة عشر مليار دولار! من أين لك هذا أيها الفتى الاشتراكي[1]؟ من أين لك يا بن المقاوم والممانع الكبير حافظ؟!

أذكر في تلك السنوات العجاف أننا كنا نحارُ فيها من أين سنأتي بعلبة مناديل ورقية لنستر وجوهنا أمام ضيوفنا، كنا نموت كلّ يوم ألف مرة لنتدبر أمر علبة حليب الأطفال، وكان أولئك اللصوص لا يعرفون أين يخزنون الذهب والفضة؟ ألم تسألكم دولة النمسا من أين لكم هذا؟ ألم تقل لكم إنكم سارقوا شعوبكم ونحن دولة ديموقراطية نخاف على حقوق الإنسان ونسعى أن يسود العدل في العالم؟

هذه الأحداث كلها تذكرتها وأنا في مجلس التحقيق بين يدي اللواء موفق جمعة. وبعد عدد من الأسئلة الموجهة إلي وإجاباتي قلت لهم: صحيح يا سادة فأنا من ارتكبت خطأً بحق حزب البعث العظيم، وأنا مستعد لتلقي العقوبة.

ولم يطل الوقت حتى اجتمعت القيادة القطرية وطردتني

(١) كشفت ثروة آل الأسد مجلة فوربس، ونشرت تفاصيل ذلك بالعربية في مقال بموقع أورينت نيوز بعنوان: تكلفة حكم الأسدين. رابط المقالة ttp://:sorient-news/ar/ten.swen/wohs_swen/١١٥١

شرَّ طِردة من اللجنة التنفيذية بقرار تعسفيٍّ. مضت أيام قلائل إلى أن جاءني عنصرٌ من المخابرات العسكرية ليسألني عن سبب المشكلة وعن سبب طردي من اللجنة التنفيذية. وهو طبعاً من النصيرية فهو ينتسب للأمن العسكري الذي جل أفراده من النصيريين. أخبرته بأن جهاد لص يسرق مخصصات الرياضيين، وهو غير مؤهل لقيادة عربة بيع في الشارع، فكيف له أن يقود فرعاً للرياضة السورية، وهو راشٍ ومرتشٍ؟! فعندما كان يأتي أعضاء المكتب التنفيذي من دمشق كان يملأ سياراتهم من الزيتون والزيت والعسل وغيرها، وكله من أموال الاتحاد الرياضي.

وحين سمع ما قلته وقف منفعلاً وقال: الله لا يخليني إذا تركت هذا الكلب في منصبه يوماً. استغربت كلام الرجل، فهل أنا أثّرت فيه وجعلته ولو للحظات يشعر بالوطنية؟! ثم قال: هل تعلم أنّي كنت عنده منذ أسبوع، وقد أعطى ملابس رياضية لثلاثة أشخاص أقمنا معاً في نفس الغرفة، ولم يعطيني شيئاً؟ فقلت وقد تظاهرت بأني مستنكر جداً ومستغرب: أووووف! ما هذا الذوق القليل؟ معقول أنه لم

يعطك كما أعطى غيرك ؟! زاد غضب الحمار الصغير وقال: سَأُري هذا المأفون من يكون. وخرج ولم يعد.

❊ ❊ ❊

والأمن العسكري الذي كان يتابع قضية إقالتي من الاتحاد الرياضي لي معه ذكرى لا تنسى. ذلك أنّ المواطن السوري حين يدخل فرعاً من فروع الأمن، الذي من المفترض أنه يحمي المواطنين وأمنهم، لا ينسى ذلك الفرع من لحظة استدعائه إلى لحظة خروجه، هذا إن خرج!وأنا لم أدخل في حياتي فرعاً للمخابرات إلا فرع الأمن العسكري. كان ذلك عام ١٩٩٦م حين شاركنا في بطولة دولية بكرة الطاولة في لبنان، وكانت مُنَظِّمة البطولة امرأة مسيحيّة مارونية تكبرني بحوالي عشرين عاماً، وهذه المرأة من نادي الليونز[١] (Lions Club).

ولمن لا يعرف هذا النادي، فهو نادي اجتماعي ثقافي مرتبط بالماسونية أو من واجهاتها، وفي البلاد العربية نجد له نشاطاً كبيراً في لبنان والأردن. والمثير للدهشة أن دولتنا

(١) أسس أول نادٍ عام ١٩١٧م

المقاوِمة للإمبريالية والصهيونية، تقبل دعوةً من نادٍ ماسونيّ، وهي التي تدَّعي الشرف وتدَّعي صراعاً طويلاً وكرهاً ممتداً لانهاية له مع الصهيونية والماسونية والإمبريالية العالمية.

يا لخبثهم! فهم ينامون ليلاً مع الصهيونية وأعداء الأمة في سرير واحد، ثم يصحون مبكرين ليحدِّثونا عن الشرف والأخلاق.

أرادت هذه المرأة أن تذهب إلى حلب لتشتري بعض المشغولات النحاسية لتستخدمها في بعض أعمال ناديها، وطلبت أن تذهب معي إلي سوريا، فهي لم تزر حلب من قبل. وعلى المعبر الحدودي أخذوا معلومات من المرأة وجهة السفر، فأعطتهم اسمي، ومضينا في طريقنا إلى حلب. وقد أعادت المرأة الزيارة لسوريا غير مرة.

وبعد سنة تقريباً، وكنت قد نسيت أمرها، يأتيني رجل- تحسبه من هندامه وكأنه متسول وقح- يعطيني ورقة استدعاء إلى فرع الأمن العسكريّ طالباً مني أن أذهب في اليوم التالي الساعة العاشرة صباحاً.

وبكلّ دهشة وخوف سألته: هل هذه لي؟ قال: نعم.

فأجبته: لعلك مخطئ، فأنا لا أتذكر أنني تكلّمت بسوء عن وضع البلد، أو رفعت نظري إلى وجه أحد من رجال الدولة، ولم أقترب من أيِّ فرعٍ أمنيٍّ في مدينتنا. لا، أنت مخطئ يا سيّدي.

فقال وقد بدا الضيق على وجهه المملوء بالغدر والخساسة: أليس اسمك محمد ظلال المعلم؟ قلت: مع الأسف، نعم. ثم نظرت طويلاً إلى الورقة التي كُتِبَ فيها اسمي، والذي أردت أن أشطبه حتى اختفي من هذا العالم. لقد تذكَّرت أبي عندما كان يقص عليّ وأنا صغير حكاية أحدهم، وقد ابتسم له الحظ ووجد في طريقه قبّعة الإخفاء. آهٍ كم وددت أن أكون هذا الرجل واختفي إلى غير رجعة! فتابعت حواري مع الرجل: نعم، إنه اسمي، وسأكون غدا حاضراً أمام باب فرعكم المحترم.

لم أخبر يومها إلا أخي عبيدة، لم يغمض لي جفن ليلتها. صباحاً اصطحبت مدرّبي القديم مخلص خريبان -رحمه الله- وقد استشهد بقصفٍ من قبل طائرات الغدر الأسدية سنة ٢٠١٦م. كان وقتذاك على علاقة برئيس فرع الأمن

العسكريّ، إذ كان يدرّبه قليلاً ويلعب معه تنس الطاولة. ومن الضروري لأصحاب النفوذ والكروش أن يستعملوا كل أدوات الترفيه المتاحة لهم، ونحن طبعاً من أدوات ترفيههم.

وصلنا إلى باب الفرع العسكري، وطول الطريق ومدرّبي -رحمه الله -يطمئنني ويطلب مني عدم الانفعال وعدم الرد المتسرّع وعدم النظر مطولاً إلى المحقّق، وإياك والصوت العالي والجلوس واضعاً رجلاً على رجل. ومن نصائحه أن تكلّم باحترام زائد ولا تردَّ إلا على السؤال المطروح. وكثير من التواصي التي يعجز العقل عن حصرها. وبسرعة البرق دخلنا لأن الواسطة جاهزة ومرافقي معروف، فهو مدرّب المعلّم ويدخل الفرع متى شاء، أما بقية المراجعين فبقوا ينتظرون حالهم كحال أيّ منتظر للنطق بالحكم.

عبرنا الساحة وصولاً إلى المبنى ثم غرفة المحقِّق الذي أعطي خبراً بأني سوف آتي إليه. دخلت غرفته فإذا هو رجل فارع الطول، أحمر الشعر، يسمى العقيد نوفل حسين[1].

استقبلني بلطفٍ لمعرفته أنَّ واسطتي ثقيلة نوعاً ما،

(١) ولد في قرية البياضة بريف حمص، تولى رئاسة فرع الأمن العسكري في إدلب من ٢٠١٠م-٢٠١٥م، فعذّب من عذّب وقتل من قتل.

وسألني بأسلوب لطيف عن اهتمامي وإنجازاتي الرياضية، وكيف أمَثّل بلدي أحسن تمثيل في الخارج، فأنا وأمثالي نشبه -حسب قوله-البعثة الدبلوماسية التي تمثل بلدها في دول العالم.

عندها كتمت ابتسامة ساخرة كادت تُفْلِتُ من بين شفتي، وتذكرت ما حدث معي ومع زملائي الرياضيين في عام ١٩٨٦م. فقد سافرت ضمن المنتخب الوطني لكرة الطاولة إلى دولة الصين، وقد مكثنا فيها شهراً ثم اتجهنا إلى كوريا الشمالية. وهذه الدولة لا تختلف عن نظام أسد بالديكتاتورية وبغمط حقوق الإنسان، ذلك أنها دولة مغلقة، فلم تكن تأتي إلى مطار عاصمتها (بيونغ يانغ) إلا طائرتان صغيرتان: واحدة من موسكو والأخرى من بكين. وماعدا ذلك فالمطار مغلق، فلا حاجة لأجانب يدخلون البلاد حتى لا يعكِّروا جو حاكمها وكان يومئذ اسمه (جون أول سونغ) والد الرئيس الحالي.

أنهينا مدّة إقامتنا هناك وكأننا في سجن كبير، فكل تحركاتنا كانت مراقبة من خلال مخابرات البلد، ولم أشعر إلا وكأننا

جالسون في فرع الأمن العسكري هذا أو أحد الأفرع الكثيرة الأُخرى.

حزمنا حقائبنا واتجهنا إلى المطار، بعد أن اشترينا الهدايا التذكارية لأهلنا وأصدقائنا. وعند وزن الحقائب أخبرنا الموظفون بأننا نحمل وزناً إضافياً. وكانت رحلتنا ترانزيت (من بونغ يانغ إلى بكين، ومنها إلى كراتشي في باكستان ومن ثم إلى دمشق).

توصلنا إلى حلٍّ مع موظفي المطار بعد أن رفضنا أن ندفع أموالاً على الحمل الزائد، لأننا ببساطة لا نملك من الأموال ما يكفي، فكل الذي معنا قد صرف.

اتفقوا أن يرسلونا إلى بكين، وهناك علينا تدبر أمرنا. قبلنا مضطرين، فلا حل أمامنا. وعندما وصلنا بكين كانت الطائرة التي سَتُقِلُّنا إلى باكستان قد طارت، لأننا تأخرنا في مطار (بيونغ يانغ) بسبب مشكلة الحمل الزائد.

وقفنا في مطار بكين وكأننا أيتام. وأخيراً قال رئيس بعثتنا: سأتصل بسفارتنا، فنحن وفد رسمي وعلى السفارة أن تتحمل المسؤولية، والطائرة التالية بعد ثلاثة أيام، فأين سنقضيها؟!

وفعلاً قام بالاتصال بسفارة الوطن، وما أحلاها من سفارةٍ!

هل تعلم -أيها القارئ الكريم- ما كان جواب السفارة؟ قالوا باستهجان: وماذا سنفعل لكم؟! والله كل مدةٍ تأتينا مثل هذه البلاوي. وتابعوا: هذه سفارة وليست فندقًا، وما عندنا قُدرة على مساعدتكم. أغلق المسؤول الثقافي في السفارة الخط في وجوهنا.

حدثت نفسي: هذه البعثة الدبلوماسية التي تمثل بلدنا يا سيادة العقيد!

لم نتفاجأ من ردّ سفارة أسد الممانع، فهذه السفارات أصلاً أُسِّسَت لأجل أن تكون بؤرة استخبارية ومركز تجسس على الشعب السوري، ولأجل أن تظل سيوف النظام مسلطة على رقاب السوريين إن كانوا في داخل البلد أو خارجه.

أُسْقِط في أيدينا، فما كان أمامنا إلا أن أخذنا أمكنة في صالة المطار الواسعة كي ننام. ولكن المدرب الصيني، وبعد أن انتظر من سفارة بلادنا أن تحل أمرنا وأن تلمنا من الشارع، ولكن لا أمل! بادرَ بالاتصال بالاتحاد الصيني لكرة الطاولة، والذي دون تأخير أسكَنَنا في فندق خمسة نجوم على حسابه.

أما رئيس البعثة فقد تابع اتصالاته مع الاتحاد السوري، وكان من بين أعضاء الاتحاد الوطني عضو نسائي تسمى «جورجيت»، التي كانت تعرف الملحق الثقافي بالصين فاتصلت به. ولأجل عيونها الحلوة، جاءنا بعض موظفي السفارة إلى الفندق وقد أحضروا بعضاً من الخبز والجبن (كما يعطى العلف للدواب)، معتذرين بأن هذه إمكانية السفارة طالبين ألّا نؤاخذهم!

بعد حالة الغثيان التي رافقت تذكري لما فعلته سفارة الجمهورية العربية السورية بنا في بكين فاجأني سؤال السيد العقيد: هل زرت لبنان؟ فأجبت: نعم، منذ سنة. وقد سافرت برفقة المنتخب الوطنيّ ولعبت مباريات باسم وطننا. قلت في نفسي: هل هي تهمة أن أسافر لهذا البلد الشقيق؟ سافرت إلى لبنان ولم أرتكب فيه خطيئة، ولم أفتح فمي إلا للطعام.

ثم نظر إليّ، وقال: هل تعرف كرازيلا الديك؟ بدأت أتذكرها، أليست هذه المرأة المنظمة للبطولة؟ فكّرت باحتمالات مختلفة: هل أجيب بنعم أو أنكر؟ إن قلت: لا أعرفها، فهم أولاد كلب، والتقرير أمامه. وإن قلت: أعرفها،

فماذا وراء هذا السؤال؟ وماذا وراء هذه المرأة؟ قد تكون جاسوسة للعدو الصهيوني أو أنها تريد أن تقلب نظام الحكم.

ما هذه الورطة التي لا مخرج منها؟ ثم قلت مستسلماً: نعم أعرفها. فتابع: وماذا تعرف عنها؟ فأجبت: أقسم بالله لم أرها إلا عندما ذهبت إلى البطولة ولا علاقة لي بها، إلا أنّي ساعدتها بشراء مستلزمات نحاسية من مدينة حلب، ولم أكلّمها بالسياسة ولا أعرف لها اتجاهاً، وليس بيني وبينها أيّ التقاء عقائدي، فهي مسيحيّة وأنا مسلم.

سألني: هل تعرف كم عمرها؟ فأجبت: حوالي ٤٥ سنة. فنظر إليّ ضاحكاً، وقال: هذا عمرها الصحيح. هل أنت مُوَلِّدها؟ تنفست شيئاً من هواء الغرفة الذي كنت أظنه قبل لحظات قد فرغ، فقد ضحك المحقّق وهذا دليلٌ أنّ الأمر أصبح روتينياً.

نظر إليّ مجدَّداً محاوِلاً التودُّد: هذا وطننا ويجب أن نحافظ عليه. هل لديك رقم هاتفها؟ أجبت مسرعاً: لا والله. فأعطاني رقمه، وقال لي: خذ هذا الرقم وتواصل معي متى عثرت على رقم هاتفها.

سنحافظ على وطننا بالتأكيد فهو شرفنا وعزّتنا. حقيقة فما شعرت يوماً أنّ لي وطناً، ولم أشعر يوماً أني عزيز في بلد لا يعرف حكامها ولا ممثلوهم ولا بعثاتهم الدبلوماسية أي شيء عن الإنسانية.

ودّعت الضابط الذي رأيته بنظري غبياً ككلّ أزلام النظام، ومررت على الغرفة التي ينتظرني فيها مدربي -جزاه الله عني كلّ خير-، وخرجنا من المبنى الرئيسي، وقد أوحى إليَّ ألا أنبس ببنت شفة حتى نخرج من باب الفرع.

وحين تجاوزنا باب الخروج، فإذا بالحارس يصيح مهدداً متوعداً. رجعنا مسرعين إلى غرفة الحارس الذي بدأ بالصراخ في وجوهنا: كيف تخرجان دون المرور عليّ وأخذ الأذن مني؟ لم يتمالك المدرب نفسه، وبدأ يصرخ في وجهه: كيف تتكلم معي هكذا؟ ألا تعرف من أكون؟

حاولت الاعتذار للحارس وفضّ الخلاف، وألْحَحت على مدربي أن يتركه حتى لا يتفاقم الموقف فهدأ. ثم قال له في النهاية: أعطيني اسمك وسترى العجب، ولن أسامحك على أسلوبك هذا. وحين شاهد الحارس ردة فعل مدربي انقلب

رأسـًا على عقب، ونزل يُقَبِّل قَدَمَه ليغفر له ويسامحه.

نظرت إلى الموقف وقلت: سبحان مغير الأحوال! كيف انقلب الحارس بلحظة من وحشٍ ضارٍ إلى فأر خائف!

وكان أخي ينتظرني على أحرّ من الجمر، جلس يلقي عليّ السؤال تلو السؤال، وكأن جلسة تحقيقٍ أخرى بدأت، وأنا أجبته وبقيت أجيبه حتى اطمأنّ قلبه.

❊ ❊ ❊

مجلس قيادة الثورة

بعد استشهاد أوّل شاب في إدلب توالى جريان الدم، وسقط الشهداء[1] واحداً تلو الآخر في المدينة، وانتقلت راية العزّ والفَخار من شهيد إلى شهيد، وسُجِّلَت دماؤهم في أرفع صفحات التاريخ زهواً وعلواً، وكأن الأمهات السوريات لا يلدن إلا الشهداء.

الوضع متوتر، والمدينة تغلي كأن بركاناً يوشك أن يثور، فلا نظام الطغيان يقبل أن يتنازل للشعب عن أبسط حقوقه، ولا يمكن للشعب أن يرجع خطوة بعد أن سالت دماء أبنائه. لقد فهم الشعب أنّ الرجوع يعني مجازر دموية ينفذها النظام في أهل المدينة. وفهم النظام أنَّ التنازل لأيٍّ من مطالب الشعب يعني أنَّ القبضة الأمنيّة ستُرفع عن رقاب الناس، وأنّ نهايته تكون إن هو داهن الشعب ولو قليلاً.

كبرت كرة الثلج، وأدركنا أنَّ علينا العمل بأسباب النجاح،

---

(١) من هؤلاء الشهداء-نحسبهم والله حسبيهم-أحمد حبوش وجمال سيد عيسى، إبراهيم شحود، محمود مشلح، محمد غريب، أحمد جمال، مصطفى سعد الدين، جميل قصاص ، عبد العزيز غفير ، هاشم سليمان، وآخرون ...

فأصبح للثورة رجال ومنظِّمون، وأنشئ مجلسٌ آخر لمثقفي إدلب، وقد وثّقت اجتماعاتهم بمحاضر جلسات[1]. وأصبح الحراك على مستوى النقابات والدوائر الفاعلة، فلابد من قيادة، ولابد من مرجعية. أما أنا وأخي فآلينا على أنفسنا أن نسهم في الثورة بطريقتنا، فمن صالة الألبسة الرياضية كبرت الاجتماعات، واستقطبت الكثير من الأصدقاء.

وتستمرّ الاجتماعات في الصالة، وأصبحنا نسمع بيانات لمجلس الثوار، ونشاركهم التنفيذ. وكلما صدر بيان كنا نسير معهم فيه، فاليوم لدنيا تشييع لشهداء سقطوا في إحدى المظاهرات، وسيمرّ التشييع أمام القصر العدليّ المحمي من قبل رجال الأمن المنتشرين على أسطحه ومبنى المحافظة ومبنى البلدية[2].

إن مرور موكب التشييع يعني أننا نتحدى قاتلينا، فهذه المنطقة فيها مقار حكم محافظة إدلب كلها. إذاً نحن سندوس الخطوط الحمراء. وكنت أرى أن مرور التشييع من هناك وتحدي هؤلاء خطأٌ، فالوحوش لن يمنعهم شيء عن

(١) انظر الجدول رقم (١) ص: (٢٤١).

(٢) هذه المباني متقاربة، فضلًا عن أن مبنى البلدية يقابل مبنى المحافظة. إضافة إلى أن عدداً من المباني الحكومية والأمنية تقع في نفس المنطقة.

قتلنا، وفي كلِّ مظاهرة يسقط منا شهداء، ونفقد خيرة الشباب!

أما أخي عبيدة، وكان مندفعاً شديد الحماس، فأجاب: لا يمكن إلا أن نمرّ من هناك، فقيادة الثورة هي من تقرِّر ماذا علينا أن نفعل، وهي من ترسم طريق المظاهرات، وعلينا الاستجابة. بينما كان رأيي مختلفاً، وكنت أرى أنها أخطأت، وأرجو الله أن يمرّ اليوم سالماً.

كنت أرى أن نخطط جيداً لكل عمل نقوم به. كفانا ما شاهدناه من نظام أسد. وعلى كلّ حال سأخرج في التشييع حتى لا أترك الناس، ولا أبتعد عن الجماعة. خرجت أنا وأخي ومعنا صديقي أبو محمد[1]- رحمة الله عليه- وابنه مهند، نسير في وسط المظاهرة، بينما كان أولادي محمد وغيث وراء النعش في المقدّمة.

وكلما حاولت أن أمشي قرب الجدار يشدني إلى الوسط ويقول لي بعنفوان الشباب: لا تخف يا أستاذ. فأسكتُ على مضض، وأنا أترقب لحظة أن يمطرنا العدوّ برصاصه الغادر.

وفعلاً فور اقترابنا من القصر العدلي، وإذا آلاف مؤلفة من

(١) كمال بعث، لديه سيارة نقل، لم تكن مظاهرة إلا وشارك فيها. أما ولده مهند فقد كان لاعباً في المنتخب الوطني السوري لكرة الطاولة.

رصاص الغدر الأسدي تطلَق على المظاهرة السلمية التي تُشَيِّعُ الشهداء. تسقط جثامين الشهداء، ويهرب الناس طلباً للنجاة، ويسقط بجانبي مباشرة أحد المتظاهرين، ويستشهد بإذن الله، وتفيض روحه إلى بارئها أمام ناظري، وأركض لأحتمي عند أول جدار أجده فأجد مهند بجواري، فأسأله: كيف وجدت السير في منتصف الطريق، هل راق لك؟! فيبتسم وأمارات الخوف بادية على وجهه، والرصاص فوق رؤوسنا.

اتصلت بأخي ومعه أبو محمد لأطمئن عليهم، والحمد لله فهم بخير. أتذكر أولادي فهم في مقدمة المشيعين وفي الصفوف الأولى، فأتصل بهم، ولكن ما من مجيب. أعاود وأعاود الاتصال لكن ليس ثمة إجابة، فيبدأ الشيطان يحدثني بكثير من الوساوس: هل قبض عليهم؟ هل استشهدوا؟ هل تعرضوا لإصابة؟ أسئلة كثيرة لا إجابة لها حتى الآن.

وبعد أن سكتت البنادق تركت مخبئي وقفلت عائداً إلى صالتي التي لا تبعد كثيراً عن مكان الحدث، وهناك أجد صغيرِي غيث وهو يركض سعيداً ضاحكًا، ثم يشرح لي كيف رمى الحجارة على من كانوا يرمونهم الرصاص، وكيف

هرب من زخات الرصاص فلم تصبه.

يتكلم مفتخراً، فأبتسم في وجهه في هذا الظرف العصيب: حُقَّ لك يا صغيري أن تفتخر، فقد فعلت ما لم يستطع أبوك فعله رغم صغر سنّك، وتجاوزت الرجال الذين كانوا يخافون حارس المخفر وشرطي المرور ودوريّة البلديّة. حُقَّ لك يا صغيري الشاب أن تروي لأولادك ما لم أستطع أن أحكيه لكم.

ثم سألته: هل تعلم أين أخوك محمد؟ فأجاب: كان بجانبي، ولكن عندما ضُرِبنا بالرصاص افترقنا، وكلٌّ منا ذهب في طريق. هنا ازداد قلقي وبقيت أنتظر إلى أن رنَّ جوالي، ورأيت اسم ابني محمد على الهاتف، فرُدَّت الروح إليّ وأنا أسمع صوته. سألته: أين أنت يا بني؟ وإذا به يتكلم بصوت خافت: لا تخف أنا في مكان آمن، ولن أستطيع الإطالة أكثر، ولكن اطمئنوا عليّ فأنا بخير، وعندما تسنح لي الفرصة سأكلمك.

انتهت المكالمة وقد زال قلقلي، فأنا اليوم أثق بابني الذي يبلغ الخامسة عشرة من عمره وأراه رجلاً، فهو رزين ويتصرّف بكلّ ثقة.

❊ ❊ ❊

نسأل عن قتلانا وجرحانا، فإذا بالحصيلة أربعة نحسبهم من الشهداء، والكثير من الجرحى. كان من بين الشهداء شاب لطيف اسمه محمد غريب كان بجوارنا حين أصابته رصاصات الغدر، ومن المصادفة أنه صديق الشهيد محمد سيِّد عيسى الذي سبقه في الشهادة قبل حوالي شهر. هكذا هم الصادقون يرحلون دون ضجيج، يرحلون ويجعلون الناس تتذكرهم بكلِّ حبّ وطيبة.

ولكن كيف ننهي هذا الوضع الذي له بداية وليس له نهاية؟ إلى متى ونهر الدماء يسير عابراً شرق المدينة وغربها داخلاً كل أزقتها وحاراتها، ولا يترك باباً إلا ويدقّه بعنف ليفجع أهله؟ إلى متى نصبر ونصبر ونخسر زهرة شبابنا؟

ويرنُ جوَّالي من جديد، إنه أحد معارفي المهندس مالك سيد عيسى، يكلمني قائلاً: لا تخف! ابنك محمد صار في بيتي آمناً ولله الحمد، وعندما يذهب المجرمون من جيش الأسد والبعثيون يمكنه أن يخرج أو يمكنك أن تأخذه بيدك.

حمدت الله وشكرته، فابني سليمٌ معافى، ولكن هناك أربعة

آباء أبناؤهم لن يعودوا إليهم، أربع عوائل سيدفنون شهداءهم اليوم، أربعة بيوت يخيّم حزن الفقد عليها، وعشرات الأقارب والأصحاب سيبكون على شهدائهم. ولدي سيكون في حضني، بأمان، ولكن هناك أربعة شباب ستضمهم القبور لا أحضان آبائهم وأمهاتهم.

ومن فورنا اتجهنا نحو جامع الفرقان لنشيع شهداء اليوم، وبينما أنا في التشييع تتصل زوجتي، وتطلب مني أن أذهب وآتي بولدها محمد من بيت مالك سيد عيسى، فقلت لها: واللهِ لن أترك التشييع، اذهبي أنتِ وأحضريه، فلا شيء يشغل بالي الآن إلا هؤلاء الشهداء وآباؤهم.

ينتهي التشييع دون ضحايا جدد ولله الحمد، وأرجع إلى بيتي مسرعاً لأرى ماذا حدث مع ابني، أصعد الدرج مسرعاً كأنني ألتهم الأرض، ثم أقرع الباب ولا أنتظر لأن أخرج مفتاحي، فأرى فلذة كبدي محمد فاتحاً الباب ضاحكاً مستبشراً.

الحمد لله على سلامتك يا بطل، سحبني من يدي وأجلسني على الأريكة، وبدأ يقصُّ عليّ ما جرى معه من أحداث، وكأنه يروي قصة فيلم.

قال: عند إطلاق الرصاص كنتُ في المقدمة، وبيت مدير الشرطة القديم على يساري، لم أجد ملجأً إلا باب هذه العمارة، صعدت السلالم وعشرات من الهاربين ورائي، قرعت كلَّ أبواب البناء ولا مجيب، وكأنني في الربع الخالي، قرعت الأبواب وكلي يقينٌ أن من يسمع سيغيث الملهوف، إنها حياة أو موت يا أبي، هل هي لحظاتي الأخيرة في هذه الدنيا؟ هل سيعدمونني ميدانياً ولن أراك أنت وأمي وأخي وأخواتي وجدتي وأعمامي وعمتي وأصدقائي؟ تذكرت كلَّ من أحبّ في هذه اللحظات، فأنا في كلّ ثانية تمرّ أعرف أني أُبعد عمن أحب أميالاً، فأصيح في البناء: يا خلق! يا بشر! وحوش أسد قادمون، كُرمى لله افتحوا أبوابكم من أجل أن يكتب بصحيفة أعمالكم أنكم أحييتم نفساً.

يتابع: لا أجد جواباً، وكان عناصر الأمن يقفون على باب العمارة من خلفنا، والأبواب الموصدة بالخوف والرعب من أمامنا، وليس لنا طريق ثالث، وظللنا نصعد حتى وصلنا سطح البناء الذي لا مفر منه. حوصرنا على السطح ونحن نسمع أقدام خنازير الأمن تلحق بنا، وتذكرت كلامك حين أوصيتني أن أموت ولا أدعهم يعتقلونني، بحثت في زوايا

السطح عن منفذ لبناء آخر ولكن المسافة شبه خيالية، وبالتأكيد سأسقط جثة بلا حراك إن وثبت من السطح.

بقيت للحظات أفكر في مخرجٍ، أبحث عن طوقِ نجاةٍ من مصير لا يعلم به إلا الله. ما هذا؟ نظرت فإذا بزاوية قريبة في البناء المقابل يمكنها -إن قدَّرَ الله لي- أن تكون سبيل نجاة رغم أنها تبعد أكثر من أربعة أمتار.

رميت نفسي إلى البناء المقابل وأمسكت بإفريز(حافة) النافذة قبل أن يصل رجال الأمن، وبقيت أضرب النافذة الخشبية بقدمي وقد أُدْمِيت يدي وأصبح الدم يعيق تمسّكي بهذه الحافة الصغيرة، وبينما أنا مشغول بمحاولاتي وإذا بشاب يلقى بنفسه ليفعل كما فعلت، فيصيبني بجسده، وبالكاد استطعت أن أعيد توازني وأنا ممسك بيد واحدة، ولكن الشاب فقد توازنه وسقط من علوٍ شاهق إلى الأرض، بلا حراك!

هل تتصوَّر معي -أيها القارئ العزيز- أنَّ شاباً يفضل الموت على أن يعتقله عناصر الأمن في بلاده؟ هل تتصوَّر معي مدى الألم والخوف الذي يمكن أن يشعر به مواطن سوري يُفْتَرض أن لديه في وطنه كاملَ الحقوق. ولكن في بلد

يقودها رجال عصابات لا يوجد شيء من ذلك!

يتابع ابني محمد: ثم ألقيت بنفسي عن طريق النافذة إلى بيتٍ لا أعرف لمن هو أو من في داخله، ولحقني شابان وقد تجرأا على المخاطرة، أما من بقوا على السطح فقد أتى رجال الأمن وقبضوا عليهم.

وأردف يكمل ما حدث معه: لحظاتٌ مرت وكأنّني ولدت من جديد، ثمَّ أغلقت الشباك بهدوء وجلست على أرض الغرفة أراجع أفكاري وأهيئ نفسي للمرحلة القادمة، وكأنَّ الله نزع من قلبي الخوف وزرع الطمأنينة والسكون فيه. بينما أنا كذلك وإذا بامرأة محجبة تسمع لغَطًا في غرفتها فتأتي معها فَتَيان صغيران لتجد ثلاثة شُبَّان هبطوا من السماء، تعقد المفاجأة لسانها وتضع يدها على فمها وتبدأ بالبكاء، فسارعت -يا أبي- متجهًا نحوها قائلاً: أرجوك لا تخافي! فنحن لن نؤذيك، فقد هربنا من عناصر الأمن الذين يلحقون بنا، وأرجو ألا تسلمينا لهؤلاء المجرمين القتلة، أرجوك ألا تعطي فرصة لهؤلاء الظلمة أن يقبضوا علينا أو يقتلونا.

هدأ روع المرأة، وقالت: تعالوا لأخبئكم في سدَّة البيت. ثم اتَّصَلَتْ المرأة بزوجها وأخبرته بالقصة، فقد كانت

وحدها في البيت. زوجها الشهم من آل جبَّاس، والمرأة العفيفة من آل منَّاع، والرجل بدوره اتصل بجاره مالك سيد عيسى وأخبره القصّة. وكان يسكن في الطابق الأرضي من البناء المقابل، فأخرج سلَّمًا ووصله بالطابق الثاني ومشينا على هذا السلم غير الثابت، دون أن نبالي إن سقطنا أو أصبنا، فكلّ همّنا أن ننجو من الجيش الباسل جيش البعث العقائدي. لم يرضَ العم مالك إلا أن يسلمنا لكم باليد.

شجعت ولدي على فعله وأثنيت عليه ووصفته بالبطل المقدام، وقد كان فعلاً بطلاً مقداماً. وحمدت الله أن الدنيا بخير وأن الشرفاء في بلدي كُثُر، فكم أنتم طيبون يا أصدقائي! أسأل الله أن يقَدِّرني على ردّ معروفكم معي، آمين!

ولكن ما حدث جعلني استشفُّ ما سيحدث في قادم الأيام. أمامنا أيام سنكون فيها بمكان لا نحسد عليه.

* * *

جثث في براد المشفى

انتشر في المدينة خبرُ وجودِ جُثَثٍ لضحايا مجهولين في براد المشفى الوطني، وعلمنا أن مدير المشفى متحفّظ عليها ولا يستطيع إخبار أحد، لأن المخابرات الأسدية هي من تدير هذه الأمور. وكان المشفى أمام منزلي تمامًا، فلما علمت بذلك نزلت صحبة أخي عبيدة وولدَيَّ محمد وغيث وابن أخي بديع لنستطلع الأمر مع بعض أبناء الثورة.

ثم دخلنا المشفى دون إذن من أحد، وفعلاً فتحنا أوّل برّاد في المشفى وكان قرب مدخل بابه فوجدنا جثثًا لنساء ورجال بعضها مشوّه الوجه وبعضها أكلت الوحوش نصف بطنهم[1]، وبينهم خمس جثث حديثة العهد مازالت دماؤها لم تجف[2].

مناظر مهولة لرجال ونساء ريفيين -وقد تبين الأمر من ملابسهم- تقشعر لها الأبدان. هل نحن في دولة قانون أم في

(١) وهذا يعني أنَّ تلك الجثث رميت في مكان مجهول بعد وقوع الجريمة، فلا الأجهزة الجنائية عثرت عليها ولا هي عرفت الجاني.

(٢) المرجح أنها جثامين لمن سقطوا شهداء في المظاهرات أو نتيجة إطلاق الرصاص العشوائي من قبل نظام أسد أو نتيجة قصفه للمناطق المأهولة.

شريعة غاب؟ هل يعلم سيد الوطن[1] بهذا الأمر؟ أو هل تعلم سيدة الياسمين[2] المرأة المرهفة الإحساس بأمر هذه الجثث؟ هل ترضى أن تكون إحدى هذه الجثث لابنها أو لأحدٍ من أقربائها؟

في ذلك الوقت كنت أشكّ أن السيدة الأولى تعلم، ولو علمت لكان لها شأن آخر. وماكنت أعلم أن الخبيث لا يلتقي إلا بالخبيث، فلا يمكن لهذا المعتوه القاتل إلا أن يتزوج بمن على شاكلته.

كان لي موقف شخصيّ معها قبل عامين، فقد زارت صالتنا -وطبعاً مع تدابير أمنية مشددة اتخذت قبل أسابيع من الزيارة- وقامت بشراء ألبسة العيد للأيتام، وأظهرت رأفة ومحبّة وذوقاً رفيعاً. ظننت وقتها أن هذه المرأة ستكون سبباً في تخليص ملايين السوريين من العبودية. آهٍ كم كنا حمقى، وآهٍ كم كنا مغفلين، وآهٍ كم كنا مغيبين عن الواقع رغم أني أعدّ نفسي متابعاً للأحداث في بلدي على الأقل ولكن (أنت فين والحب فين) كما قالت أم كلثوم، كنا

(١) وصف يطلقه الإعلام السوري الرسمي على بشار أسد.
(٢) لقب حرصت أجهزة الإعلام السوري الرسمي أن تصف به أسماء الأخرس زوجة بشار أسد.

بعيدين عن الواقع لانعرف إلا فتات الأخبار ولا نحلّل إلا ما يريد إعلام الأسد ومخابراته لنا أن نحلّله أو نفكر فيه.

وفي المشفى صاح أحد الشباب: هناك في الطرف الآخر براد ثانٍ فيه الكثير من الجثث، فقلت لأخي محبطاً: يا الله! يكفي هذا، لن أستطيع النظر أكثر، لنرحل من المشفى.

وفي طريق خروجنا قابلت محمود شحود[1]، وحين رآني سألني: ما الخطب؟ فرددت: هنالك الكثير الكثير من الموتى والجثث المتعفنة! فقال: يا رحمن الطف بنا! واستمرّ ماشياً.

وما إن خرجت من باب المشفى، ووصلت باب بنايتنا الذي لا يبعد عن المشفى أكثر من مئة متر، إلا وجحافل جيش الأسد تأتي بعربات مصفحة، وتقوم بإطلاق النار بشكل عشوائي على الناس. ابني الصغير يهرب من بين الرصاص، وأخوه الكبير يركض من الباب الخلفي للمشفى، وابن أخي يحاصَر داخل المشفى، لنجتمع مجدداً في مدخل العمارة والرصاص يتطاير بغزارة. وحوصر الناس في الشارع والمشفى، وكان وصول الجيش يعني مجزرة فوق المجزرة للمحاصَرين الذين اكتشفوا الجثث.

(١) سقط شهيداً فيما بعد. تقبله الله!

هنا هبّ بعض الثوار وأرادوا أن يفكّوا الحصار عن الناس وعن أصدقائهم، فطلبوا منّي أن يدخلوا من باب صالة الألبسة الرئيسي ليصعدوا السطح عبر الباب الخلفي للصالة، فوافقت دون تردد.

دخل سبعة من الشباب الثوار المسلحين، واعتلوا السطح وأصبحوا يردون الصاع صاعين لقوات المحتلّ الأسدي، واستمر الاشتباك إلى أن انسحبت قوات الأمن تاركة بعض الجرحى من المدنيين، ووقتها قامت هذه القوات الطاغية بإعدام محمود شحُّود إعداماً ميدانياً بدون محاكمة أو إتهام.

❊ ❊ ❊

محاولة إشعال الفتنة

في صباح يوم حزين -وكلّ أيّامنا أصبحت مثقلة بالحزن والكآبة- نسمع صوتاً نسائياً صارخاً باكياً يملأ الحيّ. للوهلة الأولى حسبنا أنّ عناصر الأمن اقتحموا أحد منازل حينا، وأنهم اعتقلوا أو قتلوا أحد شبابنا، ولكنّ بدا أن الصوت قادم من بيت جيراننا المسيحيين[1]، فهم يسكنون في بناية من طابقين ولهم دكاكين تجارية تحتها.

هرعنا إليهم لنرى ما جرى، فعلمنا القصة: إنه ابنهم الوحيد قيصر تاجر الذهب المعروف في المدينة. الشاب مؤدّب مع جيرانه، وهذا ما أعرفه طول سني حياته معنا. له علاقات مع بعض رؤساء أفرع الأمن، وله علاقة خاصة مع المحافظ لأنه من نفس دينه. وما عرفنا عنه أنه آذى أحداً من جيرانه، وهو يماثلني بالعمر. قد فوجئ أهله هذه الليلة بأنه قد قُتل في سيارته عند الصالة الرياضية[2]، اغتاله ملثمون

(١) يبلغ عدد المسيحين في مدينة إدلب نحو ١٢٥٠-١٥٠٠. أكثرهم من الروم الأرثوذكس، يعمل كثير منهم بصياغة المجوهرات، والطبابة والمحاماة والتجارة...

(٢) وهي تابعة لمديرية التربية، تقع خلف مديرية الصحة، وأمام مقر نقابة

وفروا من المكان.

لماذا يغتالونه؟! سؤال يتبادر لأذهان الجميع، ولم نجد له إجابة إلا أنّ النظام يريد أن يشعل حربًا طائفية بين المسلمين والمسيحيين، فقتلُ هذا الشاب المعروف لدى المسلمين ولدى الطوائف سيُوغِر صدر أصحاب الديانة المسيحية على أهل الثورة، فقد انتشرت شائعة من قبل النظام أنَّ الثوار هم من قتلوه.

مثل هذه القصّة حدث في كثير من بلاد العرب، فـ حبيب العادلي -وزير داخلية حسني مبارك- قام بتفجير كنيسة في مصر ليوقع العداوة والبغضاء في صفوف الشعب المصري، وهذا ديدن أجهزة المخابرات، لاسيما مخابرات الحكام العرب.

بادرت مع مجموعة من أهل الحيّ إلى بيت قيصر الشاب القتيل لنعزي الوالد المكلوم الجريح بوفاة ولده، وحين دخلت رأيته جالسًا حزينًا لا يقوى على الحراك. أقبلت نحوه وقدمت له العزاء، وأقسمت له أن النظام وراء الجريمة، وأننا معه في مصيبته وأننا كلنا أبناءه، فنحن جيران وأهل

المعلمين سابقًا.

مدينة واحدة، وقد أمرنا ديننا الحنيف بالإحسان لكلّ بني البشر. وطلبنا منه أن نشيّع القتيل كما شيّعنا شهداءنا من المسلمين. وافق الرجل، وخرجنا بالجثمان إلى الكنيسة القريبة في جنازة مهيبة، فجُنَّ جنون رجال الأمن وقاموا بقصف أطراف المدينة بالمدافع.

وصلنا الكنيسة القريبة، والتي دخلتها لأوّل مرة في حياتي، ولكن الثورة لم تكن لتفرِّق بين أهل الوطن، كلّنا أبناء هذا الوطن، وكلُّنا مكلومون. انتهت مراسم الصلاة على الشاب قيصر وازداد القصف بعدها، وأرسل الأمن رسالة لوالد قيصر أنه لن يُسمح لنا أن نشيع ولده، وأنه سيقوم بقصف الجنازة إن لم يبتعد الناس عنها. طلب منا الرجل أن نسمح له بدفن ابنه بسلام، فنزلنا عند رغبته، وتركنا بعضاً من المسيحيين يضعون الجثمان بسيارة ويرافقونه إلى المقبرة.

حاولت أجهزة الأمن شيطنة الثورة السلميّة التي لم يحمل شبابُها ولو سكيناً صغيرة، وكانت محاولته عبر جريمة بشعة بقتل هذا الشاب. إن النظام لا يهمه مسلم أو مسيحي أو يهودي أو حتى نصيري. كل هؤلاء هم أدوات ليبقى على كرسيّ حكمه، ولا يهمه إن هو داس عليهم أو رماهم

للكلاب...

في اليوم التالي أخبرني أخي عبيدة أن مسيرة[1] مؤيدة للنظام ستخرج في المدينة، وأن هذه المسيرة يقودها البعثيّ خالد غزال. توقّفت عند السماع مستهجنًا وأنا أكرر الاسم، أليس هذا الرجل هو الذي قاد أيام ثورة الثمانينات كتيبة حزب البعث التي وقفت إلى جانب النظام؟ ألم يكن رئيس الشعبة الحزبية وقتها، ودافع ورجالُه عن نظام أسد بشراسة؟ ألم يكن السبب في إدخال المئات من أهل إدلب في سجن تدمر، وشارك بقتلهم؟ نعم هو بذاته!

أما النظام فقد غدر به وحبسه أربعة أعوام، وفوقها وضع يده على أملاكه. هل تعرفون لماذا؟ لأنه أخطأ خطأ عمره حين وقف إلى صفّ رفعت أسد عندما اختلف مع أخيه حافظ على الحكم، ووصل الأمر برفعت أسد أن اقتحم بقوّاته البنك المركزي وسرق كل ما فيه من النقد الأجنبي وطلب المزيد، فأصبحت الخزينة السورية فارغة، فتدخل بعض الزعماء العرب، وأعطوه ما يريد على أن يخرج ويترك

(١) هناك فرق بين المظاهرة والمسيرة، وقد درج إعلام النظام على وصف الذين يخرجون في الشوارع تأييداً له بأنهم في « مسيرة»، أما الذين يخرجون ضده فهم في «المظاهرة».

حكم سوريا لأخيه حافظ، فخرج تاركًا ملك سوريا وحكمها لأخيه وأولاد أخيه.

نعم هذا الخطأ القاتل الذي ارتكبه خالد غزال، ولكن كيف رجع هذا الفاجر إلى الساحة السياسية؟ يبدو أن النظام لم يعد يملك الكثير من الأوراق، فلما عرض خالد غزال خدماته مقابل الإفراج عن أمواله وعقاراته وافقه النظام. واليوم هو يرتب لمسيرة مؤيّدة للنظام، ولا أعتقد أنّ من برأسه ذرة شرف سيخرج مع القتلة في المسيرة، خصوصًا أن الدماء أصبحت تسيل يوميًا في كلّ مناطق سوريا، والكل يرى ويسمع.

❊ ❊ ❊

أصبح الصغار رجالاً

ماذا ستفعل قيادة الثورة؟ قيل: إنّها ستمنع الحشد من الوصول إلى منطقة دوار السبع بحرات وسط مدينة إدلب، وهي المنطقة المقرَّرة لتجمّع المؤيدين.

خرجت في اليوم التالي مع أخي وولَدَيَّ وابن أخي عبد البديع، هذا الشاب اللطيف الذي لا تكاد تسمع له صوتاً قبل الثورة، ولكن هؤلاء الناشئة أصبحوا رجالاً. قصدنا الطريق المقابل لمدرسة العروبة للبنات، هذه الطريق الواقعة في شارع طويل ممتد من مبنى المحافظة إلى بداية الحارة الشمالية. مشينا مع شبابنا الثائر إلى أن وصلنا مدرسة الخنساء، الكائنة بجانب مدرسة العروبة ولا يفصلها عنها إلا شارع، مشيت وعيوني على ولدي وابن أخي، وسرعان ما ابتعدوا عنا وانخرطوا بين عشرات الشبان الذين لا يعرفون المستحيل ولا يخافون الموت ولا يهابون الصعاب.

الآن أترك ولدي يفعل ما يريد، وكان أولادي قبل أشهر لا يخرجون من البيت إلا بإذن، أسمح لهم أن يذهبوا إلى صالة ألعاب الكمبيوتر مع رفاقهم يوم الجمعة لساعة لا أكثر.

ممنوع أن يتكلموا مع شخص لا نعرفه هو وأهله وتاريخهم وعائلتهم واتجاههم السياسي والعقائدي. عليهم فور انتهاء مدرستهم أن يكونوا في البيت أو في صالة الألبسة أسفل البناء خلال دقائق، الأم تراقبهم مراقبة حثيثة.

منذ أشهر كان أولادي يبكون إذا تأخر الطعام، يتنظرون بلهفة أفلام الكرتون، يختلفون فيما بينهم على توافه الأمور.

فمن هؤلاء العمالقة الذين أراهم اليوم؟ وما هذه الأيام التي جعلت أطفالي رجالاً أكثر من الرجال؟ هل هي مدة كافية ليصبح الطفل عظيماً كبيراً؟ ها هم أولاء اليوم لا يحتاجون إلى المشي بجواري، بينما كانوا منذ أيام يمسكون بيدي وأصطحبهم حيث أشاء. أراهم اليوم وكأن صغار الطيور كبرت وتركت عشّها.

لن أصرخ في وجوههم لكي يعودوا إليَّ ويسيروا بجانبي، فها هم أولاء يسلكون طريقهم، وقد اختاروا حياتهم وعرفوا كيف يستردون حقوقهم. لن أطلب منهم أن يكونوا كأبيهم وأن يعيشوا تحت نِير الاحتلال والظلم، فقد بدا أنهم أكبر من هذا الخضوع. هأنَذا اليوم أطيل النظر إليهم وهم يبتعدون عنّي إلى الشوارع الفرعية، فيرافقهم دعائي لعلّي لا أستطيع

رؤيتهم بعد اليوم، فنحن في جهاد بصدور عارية ضد جيش مدجج بالسلاح، ندافع عن مستقبل أجيالنا أمام أعتى بني البشر.

ويقطع عليّ أخي حبل أفكاري طالبًا التقدم نحو رجال الأمن الذين أصبحوا تحت مرمى أبصارنا، فأقول له بعصبية: عبيدة! فكّر بعقلك، ألا ترى رجال الأمن مسلحين وهم يستعدون لإطلاق النار علينا في أية لحظة؟ يجاوب بعصبية أيضًا: نعم أراهم! ولكن الجميع يمشون باتجاههم، فأردّ عليه: والله سأقف ولن أتحرك، ولن أقدِّم نفسي قربانًا مجانيًا لهؤلاء الكلاب.

ولم أكد أنتهي من حديثي إلا ووابل من الرصاص ينطلق نحونا كالمطر، وكان جدار مدرسة الخنساء بجوارنا، وبلا تردد سحبت عبيدة من يده والتجأنا إلى الجدار، ثم رأيت ولدي وابن عبيدة الوحيد يتجهان نحو ساحة السبع بحرات ليطوِّقوا مسيرة النظام من الخلف، ولم تجمع هذه المسيرة إلا خمسين منافقًا ومنافقة، رقصوا لعشر دقائق، ثمّ فروا مع زعيم عصابتهم خالد غزال فور سماعهم إطلاق الرصاص نحو مبنى المحافظة واحتموا برجال الأمن.

أما شبابنا الصغار فقد دخلوا ساحة العدوّ الأسدي وتلقوا الرصاص بصدورهم العارية غير مبالين بحياتهم، فأصيب العشرات منهم، واستشهد بإذن الله سبعة من الصادقين الطيبين الذين كان كلّ همّهم أن يجعلوا حياتهم ومستقبلهم بأيديهم، وألا يتركوا للمجرمين فرصةَ أن يستعبدوهم.

❊ ❊ ❊

جمعة دامية أخرى

جمعة أخرى دامية وتشييعٌ آخر مخيف على دوار المحراب، حيث وصلنا ومعي أخي وصديقي الطيب أبو محمد بعث.

نزلت من السيارة مع أبي محمد وقرَّرنا أن نمشي، أما أخي عبيدة فركب السيارة متجهاً إلى المقبرة. وخلال لحظات تأتي سيارة (دوشكا) من فرع الأمن العسكري على طريق سرمين، وترشّ رصاص حقدها على المشيعين فتقتل شابين وتلوذ بالفرار.

ما هذا الإجرام الذي وصلوا إليه؟ وما هذا الثبات الذي نحن عليه؟

لقد أصبح الشباب في بلدي شهيد يشيع شهيداً، ومظلوم يُدفَن مع مظلوم، ووطن يراقب أبناءه بصمت وحزن؟ما هذا يا وطني، ألسنا أولادك؟ ألسنا من وُلِدنا قرب جذوع أشجارك؟ ألم تقل: إنك حامٍ لنا بعد الله؟ ألم تروِك الدماء التي سالت؟ ألم تخجل من دموع وآهات أمهاتنا؟ سأكفر

بك، لأقول إني ولدت في وطن لا هوية له.

ولكن لا! فأنت وطني ووطن أجدادي من قبل. سأكون وفيًا لك مهما ظلمْتنا، وسأعلِّم أولادي ما كُتب في تاريخك من عزٍّ وفخار، لن أخذلك يا وطني، هناك فرق بين الوطن والنظام الذي يحكم.

كثيرة هي الأفكار التي تمرُّ برأسي تحت وابل الرصاص، وأمام دفقات الدماء، وأمام أبناء وطني الشهداء. فأيقظني هروب أبو محمد بكل ما أوتي من سرعة وكان في الستين من العمر، وقد سبقني وقبل دقائق كان يشتكي من وجع قدميه، ويتكئ عليَّ، وأنا أقول له: ما زلتَ شابًا يا صديقي.

ما هذا الشباب يا صديقي الطيب؟! لقد سبقتني وركضت كحصان عربي أصيل! ضحكَ طويلاً وهو يجيبني: واللهِ لم أشعر لا بركبتيّ ولا بألم قدميّ، فالروح غالية، وعندما سمعت رصاص الدوشكا فقدت كلّ إحساسٍ بالزمان أو المكان. أجبته: نعم يا صديقي الطيب، الحقّ معك، فنحن اليوم كأنَّنا في حربٍ شعواء بين جيشين، لا بين شعب أعزل عاري الصدر وجيش مدجّجٍ بالحقد والسلاح.

قفلنا راجعين، ثم لحق بنا عبيدة، وجلسنا في صالتنا نبكي من قُتِل، وقد حرنا في أمرنا وأمر العرب والعالم الساكت عن إجرام نظام أسد، فعدد قتلى سوريا في كل أسبوع تجاوزَ المئات، وأمعن رجال الأمن والجيش في توحشهم، وأصبح الأمر لا يُحتمل. ماذا تنتظر جامعة العرب؟ هل تنتظر أن يُلقى الشعب السوري جميعه في البحر، ويبقى بشار وأخوه ماهر وحثالتهم؟ لماذا سمت نفسها جامعة للعرب؟ وما هو عملها إن لم تنقذ الشباب العربي من الموت؟ لماذا يأخذ الأمين العام للجامعة العربية مرتباً شهرياً بمئات آلاف الدولارات، هل يأخذ المبلغ بسبب اسمه؟ أم أن لديه واجباً عليه أن يقوم به؟

اليوم أخبرني أخي عبيدة أنَّ اجتماعاً سيعقد في جامعة الدول العربية، استبشرنا خيراً فربما سيحلّ وزراء الخارجية العرب المسألة السورية، وسيضعون حداً لسفك الدم وقتل الأبرياء في سوريا.

قال لي صديقي أبو محمد-رحمه الله-: نسأل الله أن يفرج عن أهل سوريا. وتابع: أكاد لا أصدّق أنَّه من الممكن أن

نتخلّص من هذا الكابوس. يا رجل! تجاوزت الستين عاماً ولا أعرف إلا حزب البعث والمقبور حافظ أسد وابنه. فإلى متى - بالله -سيبقون جاثمين على صدورنا؟ إني أخاف أن يلحق بنا إلى القبر إن مُتنا. ألا يكفيه ما سرق من مقدرات البلاد؟ فليأخذ ما شاء وليرحل عنا.

اعترض أخي عبيدة باندفاعه صائحاً: لا والله لن نقبل! بل سنحاسبه، ولن نتركه حرّاً. أجبتهم: ليرحل، وليأخذ ما شاء من أموال سوريا، وليأخذ معه من يشاء من زبانيته ولن نحاسبه، ليخرج فحسب ويكفي ما سال من الدماء، وليُكَفَّ حقده وإجرامه عنا.

لم نتفق على رأي، وكلٌّ انطلق نحو بيته بانتظار يوم جديد وأحداث جديدة وقتلى جدد وتشييع جديد.

مرَّ الأسبوع سريعاً، ونحن لا نكل ولا نمل، نثور ونخرج للمظاهرات في الصباح، وفي المساء نشيع الشهداء.

شيَّعنا الشَّابَّيْن اللَّذَيْن سقطا في المظاهرة إلى المقبرة الواقعة على طريق سرمين، مشينا على أضواء السيارات فالمقبرة خارج البلد، وحين وصلنا سالمين أبلغَنَا الشيخ

أحمد حبوش راجياً ألَا ندخل المقبرة، لأنَّ الوقت ليل، وحتى لا ندوس على قبور الموتى. وقفنا مع حشد المشيعين المتظاهرين خارج المقبرة منتظرين الشيخ وأهل الشهيدين، ثم رجعنا جميعاً إلى المدينة. ونحن نهتف ضد النظام.

وبعد أيام زارني الشيخ أحمد في صالتي، فأخبره ابني غيث كيف أنه في ليلة أمس وفي أثناء التشييع هجم على كبينة الحرس وقام بتكسيرها، فابتسم الشيخ -رحمه الله - وقد كان لطيفاً دمث الخلق، وقال لولدي: أتعرف كيف أحب أن أموت؟ أريد أن أموت حاملاً جنازة شهيد، أو أموت وأنا أسعف جريحاً.

وأردفَ: أتعلم أنَّ الغرفة التي خرَّبتها هي للشعب ومن دم الشعب؟ إنها لنا وليست لآل أسد أو جيشه. هذه أرضنا وهذا وطننا وهذه مقدرات بلدنا، وعلينا أن نحميه وأن نحافظ على كل مكتسباته. أنا لن أحمل السلاح وسأظلُّ أصرخ بصوتي وبسلميَّتي ولن أدع للنظام فرصة ليجعلني خصماً لجنود فيهم الكثير من أهلنا.

ونظر إليّ قائلاً: أتعلم لماذا تأخرنا البارحة في دفن

الشهداء؟ حركت برأسي متسائلاً، فقال: قد وجدنا كيسين قماشيين كبيرين في المقبرة: أحدهما فيه أسلحة، والآخر فيه ذخيرة. فمن تظن أنه وضعهم عند القبر؟ قلت: وهل يحتاج الأمر إلى عقل مفكّر؟ إنها مخابرات النظام، ومن له مصلحة بنشر السلاح[1] إلا نظام أسد؟ قال: تماماً. هذا ما يريده النظام، ونحن لن نترك السلميّة في ثورتنا، ولن أحمل دماءً في رقبتي آتي بها يوم القيامة.

هذا ما قاله لي هذا الشيخ الوقور والرجل الطيب، وبدا صادقاً في كلامه، متمسّكاً بأفكاره، ولم تمضِ سوى بضعة أيام حتى هجم علينا رجال النظام وأمطرونا بالرصاص، وكان قناصوهم يتصيدون الشباب ليردوهم قتلى، فأصيب من أصيب واستشهد من استشهد.

وكان الشيخ أحمد بين المتظاهرين، فبادر من فوره إلى المصابين ليسعفهم، وبينما كان يقوم بسحب جريحٍ قنصه رجال الأسد، إذا بالقناص يستهدف الشيخ برصاصة فيسقط فوقه أيضاً، ثم يقنص شابا من آل سيد عيسى فماتا،

(١) منذ بداية الثورة سعى النظام إلى عسكرة الثورة والثوار، بحيث يتهمهم بأنهم إرهابيون، فتكون حجة له يواجه بها الرأي العربي والعالمي.

ونحتسبهم شهداء عند الله.

وكما رجا، فقد استشهد وهو يسعف جريحاً. لقد صدق الله فصدقه.

❊ ❊ ❊

البعثة العربية[1]

انكفأ رجال الأمن في فروعهم وقد تركوا المظاهرات تجوب أنحاء البلد، واختبأ جرذان بشار في جحورهم، فقد أصبح السلاح يظهر بأيدي بعض الثوار ليحموا المتظاهرين.

وأصبحت هناك مظاهرات طلابية ونسائية. نعم، إذ لم تدخر النساء جهداً في خدمة الثورة، فمن مشاركاتهن بالمظاهرات، ودفع فلذات أكبادهن لأجل أن يكونوا وقوداً للثورة، وهن على علم بأنهن قد لا يَرَيْنَهُم مستقبلاً. لقد تجرأ الجميع على الحلم، ولكني ما ظننت قبل اليوم أن أرى الأمهات يدفعن بأولادهن لنيل الشهادة، وكأننا عدنا إلى عهد النبوة. لقد فعلت النساء الكثير الكثير. جهزن للمظاهرات، وصنعن الأعلام وزرن أهل المصابين وقمن بواجب التعزية بالشهداء. كانت أصواتهن ترْفَع في كل مظاهرة رفضاً لحكم أسد، وهو الأمر الذي شجع الكثير من رجال بلدنا وشبابه على الانخراط في ثورة الحق والعدل. ولقد

---

(١) بعثة المراقبين العرب إلى سوريا هي بعثة أرسلتها الجامعة العربية لمراقبة الوضع الإنساني في سوريا على خلفية المجازر التي قام بها نظام بشار الأسد. زارت البعثة عدة مناطق في سوريا في شهر ١٢ من عام ٢٠١١، ولم تسفر عن شيء.

امتلأ بيتي بالرسوم والألوان والأعلام، فقد كانت زوجتي وابنتاي وصديقاتهن يجتمعن فيه لأجل التجهيز لمظاهرات يوم الجمعة، من كتابة اللافتات، ورسم الأعلام ونحوه. ولقد خرجت محار وسنا ابنتاي الصغيرتان في مظاهرة مع زميلاتهن ومدرّساتهن.

وبقوة السلاح امتلك الثوار كامل البلد، وحرروها من قبضة المجرمين، إلا الفروع الأمنية والشارع الموصل إلى مقر المحافظة والبلدية. وصارت الثورة أكثر تنظيماً وأصبحت كلّ جمعة تسمى باسمٍ يريده الثوار، فهنالك جمعة المجلس الوطني يمثلني، وجمعة أخرى تطلب التدخل الأممي.

ثمَّ أرسلت الجامعة العربيّة مراقبين عرب ليدرسوا الوضع بحذافيره في سوريا، ولكن بعض أعضاء اللجنة جلسوا في فنادق دمشق، وقدم لهم نظام أسد الفتيات وأغرقهم بالشهوات والفسوق، فزلت أقدامهم، وسقطوا في مستنقع الرذيلة، فكتبوا تقريراً يدلّ على مستوى دنيء، وسيكون الشعب السوري خصيمهم يوم القيامة بإذن الله.

وبحضور البعثة العربية في سوريا، فقد اتفق الثوار على أن يكون اسم الجمعة المقبلة جمعة الزحف إلى الساحات أي

أننا سنذهب إلى رجال بشار بأقدامنا، وسنُري رجال المراقبة العرب كيف أننا لا نريد هذا النظام، وأننا نتظاهر سلمياً، وأنه يقابل السلمية بالرصاص الحي في صدور الشباب.

وكان يوماً عظيماً في إدلب، مظاهرة لها بداية وليس لها نهاية، فالمتظاهرون أقبلوا من كلّ أرياف إدلب إلى المدينة في هذا اليوم ليعلنوا أننا شعب واحد ومطلبنا واحد وهو إسقاط النظام. وككل مرة اجتمعنا: أنا وأولادي، وعبيدة وابنه، وأبو محمد وابنه مهند، ثم قصدنا دوار المحراب مع جموع المتظاهرين من أهل إدلب لنستقبل أهل الريف. وكان احتفالاً عظيماً رُفع فيه علم الثورة، وغنى الشباب لها بأصواتهم ومشاعرهم وأحلامهم أيضاً، وانطلقنا إلى الساحة التالية الواقعة أمام مبنى المخابرات الجوية، وما أن وصلت الجموع الهائلة إلى هناك حتى ترك المراقبون العرب الساحة وركبوا سيارتهم وانطلقوا خارج المدينة أمام سمع الشعب وبصره. وفور خروج اللجنة العربية من المدينة قامت قوات الأسد بإطلاق القنابل المسمارية والرصاص الحي على المتظاهرين، وكالعادة سقط عدد من الشهداء، وجُرح الكثير من المتظاهرين.

لم يثننا ذلك وازددنا ثباتاً وإصراراً، فاستمرَّ التظاهر ولكن بعيداً عن هذه الساحات. أصبحنا نخرج ليلاً ونهاراً

نتظاهر لحمص ولحماة ولدمشق. نتظاهر ونملأ الشوارع عند كل مجزرة تحدث في بقية مدن سورية.

ومع فقد الأمن السيطرة على الشعب الذي ثار في كل مكان، تقيدت حركة عناصر الأمن، حتى إذا أرادوا أن يشتروا طعاماً أتاهم البائع إلى أسوار الفرع ليأخذوا الطعام.

تأملت المشهد والحال، فقلت لأخي: هذا أمر لا يمكن أن يستمر، ويقيني أن النظام سيتخذ خطوة ما، فمن غير الطبيعي أن يترك المدينة بهذه السهولة. وفعلاً انتهت أيام مظاهراتنا السلمية، فقد تنامى إلى سمع الجميع أن الجيش سيقتحم مدينة إدلب، فقال أخي الكبير: وماذا يعني أن يدخل إليها؟ الثوار نصبوا حواجزهم على كلّ مداخل المدينة، وحصَّنوها بالمتفجرات، ولن يستطيع أيّ جنديّ أسدي أن ينجّس أرضنا الطاهرة. يكفي الدماء التي سالت، والشباب الذين قتلهم، والمعتقلات التي امتلأت من أبنائنا. إننا نموت فيها دفاعاً عنها ولا نتركها لهم ليعيثوا فيها فساداً وإفساداً.

فكرت في نفسي: صحيحٌ هذا الكلام، فإن لم تستطع الدبابات والعربات وحاملات الجنود من عبور مداخل البلد فكيف لهؤلاء القتلة أن يصلوا إلينا؟ خاصة أننا نعرف حارات

بلدنا وشوارعها وخبايا أزقتها.

فقررت أنا وأخي أن نتحصّن بمدينتنا لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمراً، وبدأنا نسمع عن خطط عظيمة وعن استعدادات هائلة للثوار في تحصين البلد. في الحقيقة لم نكن نعلم عن العسكرة إلا اسمها، فأنا مثلاً لم أحمل مسدساً أو أطلق رصاصة إلا أيام خدمتي العسكرية في مدارس الشرطة، فقد تدربت على البندقية مرتين: في أولاهما اجتمع حولي أكثر من مدرب خوفاً من أن تهتز أعصابي وأطلق النار إلى الاتجاه المعاكس فأصيب الذين حولي، ولم أطلق في كلا المرتين إلا خمس رصاصات فقط، وكان أكبر همّي أن ألمّ فوارغ الرصاصات حتى لا أدفع ثمنها، هذا كل ما تعلمته في التجنيد الإجباري.

واستمرت الاجتماعات مع الأصحاب والمهتمين بالثورة إلى أن سمعنا صباح أحد الأيام أصوات قذائف الدبابات وطلقات المدافع، فانتفضنا من نومنا مذعورين خائفين. حدثت زوجتي وقتها: هل فجّر الثوار عربات ومدرعات العدوّ؟ أم أنّه هو من يقصف من بعيد؟ فقامت باتصال سريع مع إحدى صديقاتها، ثم قالت لي: إن الجيش وبكلّ سهولة أصبح في المنطقة الجنوبية من إدلب، ودخل عن طريق أريحا بكلّ سهولة ويسر، فعقدت الدهشة لساني من هول الصدمة،

وكأنّ صخرة سقطت عليّ من شاهق وجثمت على صدري، فلا أنا بميّت ولا أنا بحي، فما الذي يحدث؟ الثوار أكّدوا أنّهم سيتصدون للجيش، وأنهم قادرون على دحره، ولم تمضِ سوى سويعات إلا والجيش أصبح يحتلّ منطقة كبيرة تعدُّ معقلاً هاماً للثورة.

أصبحنا نتتبع الأخبار ونتصيَّدها، وكلّها آتية بما لا يفرح القلب مخيبة للظن، ولكن لم نهتم فهذه جولة، وإدلب مدينة متشعّبةٌ كثيرةُ الحارات، والثوار بالتأكيد منتشرون في تلك الحارات، وقد تسلحوا بأكثر من مئة بندقية كلاشنكوف، وسيذيقون العدوّ ألوان المهانة. رجوت الله كثيراً ألا أخرج من إدلب بالرغم من أن طريق الحارة الشمالية والغربية مازال مفتوحاً.

علينا أن نتمسّك بأرضنا، فهؤلاء الغزاة جاءوا ليُخرجونا من ديارنا، ولن نسمح لهم أن يشردونا من وطننا، فهذه المدينة هي أرض أجدادي، وهنا دفن أبي وأنا سأدفن فيها، إنها بلدي وأرضي، أحببتها كما أحببت أولادي، سأقف خلف الثوار لأدعمهم بما أستطيع.

❊ ❊ ❊

الجيش العربيُّ السُّوري

وكلّما تقدمت الساعة سارعت الأخبار المحبطة، شهداء من شباب الثورة، وبعض القتلى من الغزاة، مجزرة في جامع بلال، قنص على مداخل إدلب، حملات تفتيش قاسية واعتقالات بالجملة، تنكيل بالأهالي، يا الله! ما الذي يفعلونه؟ هل هذا جيش سوريٌّ أم جيش احتلال؟!

ساءلت نفسي: من أين آتى هؤلاء القوم؟ أليسوا سوريين مثلنا؟ ألم يأكلوا معنا من الصحن نفسِهِ؟ ألم يعيشوا بينا؟ ألم نكن ننظر في وجوه بعضنا ونبتسم للوطن معاً؟ ألا يعرفون أنه من قتل نفساً بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعاً.. ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً؟ كيف لهم أن يضغطوا على زناد بنادقهم يصَوِّبونَها نحو صدور أبناء وطنهم؟ كيف؟! وهذه الأسلحة التي في أيديهم نحن من دفعنا ثمنها من عرقنا وتعبنا وأموالنا وضرائبنا، على أمل أن هذا السلاح سيحرر الجولان، أو سيسترجع فلسطين المحتلة.

لم نفكّر يوماً أن جيشنا الباسل سيكون باسلاً علينا فقط، وأننا كنا ندفع الضرائب لأجل إذلالنا وقتلنا وسحلنا في

الشوارع. أين الشرفاء من البشر؟ بل أين السوريون من أبناء جلدتنا من أهل السنة من مدن حماة وحلب ودمشق وحمص ودرعا والمنطقة الشرقية والساحل الحبيب؟ ألا يعلمون أن ثورتنا لأجلهم أيضاً، ولأجل مستقبل أجيالنا القادمة؟ ألا يعلمون أن الظالم القاتل الطائفي يجثم على صدورنا، يلتهم مستقبل أولادنا؟ ألم يعلمهم آباؤهم أنَّ الدعي بشار وأباه اغتصبوا السلطة وسرقوا الوطن وعذبوا أبناءه ونكلوا بهم؟

كيف يفكّر من يقاتل مع النظام ويحمل في رقبته دماء أناسٍ مسلمين عرب يتكلمون بلغتهم ويؤمنون بربهم الواحد، ويصلون معهم إلى قبلة واحدة، ويحبون نبيهم محمداً صلى الله عليه وسلم.

كيف لي أن أشرح لنفسي أو لأحد من أصدقائي خارج سورية ما يحدث في البلاد؟ كم كنت أرجو أن اقترب من هؤلاء الجنود وألمس وجوههم وأنظر في عيون أحدهم وأكلمه لأعرف أهو إنسان مثلنا؟ وهل هو مسلم عربي سوري؟

لم أستطع أن أبقى جالساً في البيت وأنا أرى كلّ ما يحدث، فخرجت مع أخي وولدي وذهبنا إلى الحي الشمالي لنساعد

بدفن شبابنا الذين استشهدوا صباحاً. وفي منزل شعبي تمدَّد شابان أحدهما من أقاربي، وكان الثوار متحلّقين حولهما بأسلحتهم الفرديّة البسيطة، وعلى وجوههم قهر الدنيا كلّه، فقد خاب أملهم وخابت خططهم. حملوا الشهيدين ومشينا وراءهم إلى الحديقة التي سندفنهم فيها داخل المدينة التي حفرت قبورها على عجل، لأنّ المدينة حوصرت من الجيش ولا يمكن الوصول إلى مقبرة العامة.

سرنا في الطريق ودم الشاب يسيل ليكون علامة دالة في الأزقة القديمة التي نمرّ بها أن هذه الدماء ستكون سبباً في فناء آل أسد، وستكون لعنة عليهم، وستخبر التاريخ أنه من هنا مرّ المحررون، ومن هنا جاء نصر الله.

وعند الانتهاء من الدفن خرجنا مسرعين خوفاً من استهداف دبابات العدو لهذه الحديقة، مشينا في الشوارع الخالية وصوت الانفجارات حولنا، لم نرجع إلى البيت بل واصلنا المسير إلى مسجد الشيخ برغل القريب من حارتنا، والتقينا بشاب طيب تبدو عليه علائم الوقار، عرفته سابقاً فهو من آل عبيد وقد قتله النظام لاحقاً في معتقله رحمه الله. صلى بنا صلاة العصر إماماً وكنا خمسة أشخاص فقط،

وبعد أن صلينا ذهبنا إلى مشفى عز الدين رفقة الأخ ياسر سيد عيسى، وهو أخو الدكتور «عز الدين سيد عيسى[1]»، صاحب المشفى ومديره...

في المشفى قال لي ياسر: هناك جثة لأحد الشباب في براد المشفى، هل تستطيع التعرف عليه؟ صعدنا الطابق الأعلى، ثم فتح الباب وسحب جثة شاب، وحين نظرت إليه عرفته جيداً، هذا الشاب يدعى «باسم مرتيني» كان يعمل في تركيب الألمنيوم وأبواب الزجاج. ثم قلت لياسر: انظر إلى الشاب لا يبدو أنه ميت، انظر إلى وجهه المضيء، وانظر إلى نومه الهادئ. فأجابني بأن الأهالي جاءوا بهذا الشاب منذ الصباح، وقد قتله عناصر الجيش المجرم لأنه ساعد الجرحى ونقلهم بسيارته التي يملكها. أرجع ياسر جثة الشاب، وأغلق الباب محتسبا داعياً له وعلى من قتله.

ولقد أخبرني أخوه «أمين» لاحقاً بأن السلطات الأمنية أجبرت ذوي الشهداء -نحسبهم والله حسيبهم- أن يُخْرِجوا الجثث من أماكن الدفن في حدائق المدينة، مسوغين ذلك

(١) هو معتقل سابق لسنوات طوال في «سجن تدمر». أيد الثورة وكان فاعلًا فيها، كما أنه قام بواجبه فداوى الجرحى في أثناء المظاهرات. استطاع الهرب قبل دخول جيش أسد إلى إدلب بيومين.

القرار بأن هؤلاء إرهابيون، ولا مكان لهم في المدينة!

وأقسمَ أمين ومن كان معه بأنهم وجدوا أجساد هؤلاء الشهداء رطبة ودماءهم زكية حارة، وهذا بعد ثلاثة أسابيع من الوفاة. تذكرت، وهو يخبرني بذلك، قوله تعالى ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩].

وتابع أمين بأن إخراج هذه الأجساد الطاهرة كان بإشراف الجهات الأمنية الذين أمروا ذوي الشهداء أن يوقعوا على ورقة مكتوبة سلفًا، مفادها أن الإرهابيين هم من قتلوه. ليتابعوا كذبهم المفضوح على العالم الخارجي والداخلي. فتأمل!

وفي الساعة السادسة مساءً سكتت المدافع وساد الهدوء ولبست المدينة ثوب الحزن على العشرات من أبنائها، ولم يبقَ في أحياء المدينة إلا رائحة الموت والخوف.

* * *

مداهمة البيت

كان احتلال إدلب مؤلمـًا، والمجازر مؤلمة، والجثث التي رأيناها تفطر القلب. لقد شعرت بالكثير من الأسى والألم والحزن.

لم أشعر أنّ الحجارة تبكي إلا عندما عدنا إلى بيتنا. لم أعرف أن الشوارع والبيوت لها قلوب إلا عندما كنت أنظر خلسة لأبنيتها بخجل. يومها ظننت أن الدنيا انتهت، وأنّ الحياة توقفت، وأنّا خسرنا كلّ أمل لنا بثورتنا، وأنّ الغد لن تشرق شمسه.

ثم وصلت مع أولادي إلى البيت، وذهب أخي عبيدة إلى بيته الذي هو في نفس الشارع بعد أن اتفقنا أن نختبئ صباح اليوم التالي في صالتنا التي كانت تحت بيتنا.

استقبلتنا أمي وزوجتي بكثير من الأسئلة والاستفسارات: كيف الوضع؟ وماذا حصل وماذا سيحصل؟ ومن مات ومن هرب؟ الكثير الكثير من الأسئلة التي أجبت عنها، كأني رجل آلي، ومن هول الصدمة فقدت كل إحساس آدمي.

لا أعرف كيف تكلّمت وبماذا تكلمت. الذي أعرفه أن الجيش سيقتحم المدينة ويدخلها بدباباته وجنوده وآلياته وأسلحته الثقيلة والخفيفة، وسيفتش البيوت بالتأكيد، ويبحث عن المطلوبين، ويعتقل الشباب، ويقتل دون أن يرف للواحد منهم جفن.

أمام هذا الواقع لم أعد أعرف غداً ماذا سأفعل، هل عليَّ أن أهرب أم أختبئ أم أبقى في البيت مع أمي وزوجتي وبناتي، أم أتركهم وولدَيَّ اللذين هما أصلاً مطلوبان للنظام لأنهما -حسب زعمه- يتواصلان مع قناة أورينت، رغم أن عمر غيث ١٣ سنة، ومحمد ١٥ سنة. وإذا تركتهم هل آمن عليهم من غدر هؤلاء المجرمين؟

لا أعلم هل نمت أم أني تظاهرت بالنوم، وعلى صوت المؤذن «الصلاة خير من النوم» رميت عني دثاري، وقررت أن أختبئ في الطابق الأول من البناية أنا وأخي عبيدة، وأن أرسل ابني الكبير محمد إلى بيت خالته الذي هو بجوار الأمن السياسي، وأن أبقي ابنتيَّ وابني غيثاً بجوار أمهم وجدتهم لأنّ غيث صغير البنية، وقد لا يشك به الأعداء، وابنتاي صغيرتان فلا خوف عليهما.

قامت زوجتي بتحضير الخبز والمعلبات والأغطية، وأنزلتهم إلى الطابق السفلي في الصالة، ظنًا منها أننا سنجلس عدة أيام فيها.

واتصلت في الساعة السابعة بأخي عبيدة طالبًا منه المجيء مسرعًا حتى ندخل من الباب الخلفي لصالتنا، ولكن لم يردّ علي، وتأخر بالمجيء حتى الساعة التاسعة، فلم نستطع أن ندخل من الباب الخلفي لأن الجيش أصبح على باب البناء.

اضطررنا أن ندخل من الباب الرئيسي لصالة الألبسة، وكان كلّ جيراننا يقفون على شرفات منازلهم، فلم يبقَ أحد إلا وعلم أننا اختبأنا في صالة الألبسة.

وما زاد الطين بلة أن جارة لنا من آل أصفري خافت على ولديها فطلبت أن ترسلهم معنا، وأيضًا ما عقّد الأمر أنني رأيت جارنا أبو كرمو حاج اصطيف وولديه يسيرون على غير هدى، فسألتهم: إلى أين تهربون؟ فقالوا: إنما نمشي على غير هدى، فليس لدينا مكان نختبئ فيه. فقلت لهم بكلّ رحابة صدر: تفضّلوا فالصالة كبيرة وتتسع لكلّ المحبين والثوار. وقبل أن نغلق الباب وإذا بجاري الشاب مصعب أصفري يركض خائفًا وهو ينادي: أدخِلوني معكم،

فاسمي لدى رجال الأمن، وسيعتقلونني إن عثروا عليّ. فأجبته: على الرحب والسعة يا أخا العرب، وأدخلته. لكنهم لا يعلمون أنهم كالمستجيرين من الرمضاء بالنار.

أغلقنا الباب وأصبحنا داخل الصالة كعصافير ينتظرون حفلة شواء بأجسادهم الغضة، نظرت في الوجوه التي حولي، ما هذه المصيبة؟ عددت من كان معي مرة واثنتين وثلاث، نحن ثمانية أشخاص، كلنا مطلوبون للنظام، ولكلّ واحد منا ذنب قد ارتكبه عند النظام وعند جيشه الأجرب الذي ينتظر الفريسة ليلتهمها.

وبدأت الأفكار تأخذني يمنة ويسرة، وكما يقال (ذهبت السكرة وجاءت الفكرة) ما هذا البلاء الجديد الذي وضعت نفسي فيه؟ إذا أردنا أن نهرب من الباب الخلفي فنحن ثمانية، يعني عددنا كبير وسيفتضح أمرنا، وإذا أردنا أن نخرج من الباب الأمامي فالجنود أصبحوا أمامنا، وإذا وشى بنا أحد جيراننا فإننا مقتولون، لاريب.

بدأت أتلو بعض الأدعية وأرددها: اللهم اهدنا سواء السبيل واجعل لنا من أمرنا رشداً، سلمت أمري لله الواحد الأحد. فلما قلتها وكأن راحة الدنيا وهدوءها أظلاني وفرَّجا

عني ورُفع عن كاهلي كلّ خوف أو شكّ بأن الله سينجيني ومن معي من هذا الكرب العظيم.

لا أعلم هل هي لحظات أم دقائق مرّت أو سويعات وإذا بنا نسمع خبط أقدام الجيش العربي السوري على درج بنائنا، خبطٌ ذكرني بفيروز عندما غنت: «خبطة أدمكم على الأرض هدارة، أنتو الأحبة وإلكم الصدارة» يا رب! كلّ هذه الأقدام على درج منزلي، فمن بقي على حدود الوطن إذاً؟ ومن سيدافع عن عزّة ترابنا وعن حدود بلدنا إذا كانت كلّ هذه الأرجل آتية لتفتيش بيتي واعتقالي؟ وهل أنا هذا المجرم الخطير الذي يحتاج جيشاً جراراً لاعتقالي؟

لم يكن في البناء ذلك اليوم إلا أسرتي، فالبناية مؤلفة من أربعة طوابق: اثنان منهما تجاريان، وهما صالتا ألبسة لنا، وطابق مؤجر للاتحاد النسائي، ثم نحن وبجوارنا جارة لنا تسكن وحدها، ولم تكن في البيت ذلك اليوم.

ولكن كيف لي أن أنسى؟! ففي الصالة العلوية صناديق الأدوية ومواد إسعاف الجرحى والمصابين، وكنت أنوي أن أجعل الصالة السفلية مشفى ميدانياً لإسعاف المصابين والجرحى، إذ أنّه لم تعد هناك أيّة حركة تجارية، وقد دخل

الجيش سريعاً قبل أن أتدبر أمرها، والكل يعلم أن هذه الأدوية توصل صاحبها لحبل المشنقة، والنظام كان يضع كلابه من المخابرات في المشافي، وكلّ من يذهب إلى المشفى مصاباً فمصيره الاعتقال بتهمة الإرهاب لا العلاج، وإن لم يلطف بنا الله فهذه نهايتي، لم أخبر أخي أو أحداً من المختبئين بهذا الأمر.

بقيت أسمع صوت خبطات البساطير العسكرية على الأرض معلنة وصول ضابط كبير، وقد دخل بيتي -كما أخبرتني زوجتي بعد ذلك- وسأل عني، ثم أمر بتفتيش البيت هو وعشرات من جنوده، ثم أخذ الهاتف وبدأ يبحث فيه عن أي اتصال خارجي بدولٍ أخرى أو قنوات فضائية، ظناً منه أني عميل لم أترك بلداً إلا وزرته أو تواصلت معه لأخون بلدي.

وبعد أن خاب ظنه أخذ يفتش في الصور، وكأنه يبحث في طياتها عن مخطوطة نادرة سيغنى بها إن هو امتلكها. قالت له أمي: عمَّ تبحث يا ولدي؟ والله حتى سكاكين مطبخنا غير قاطعة، نحن أناس مسالمون.

نظر إليها وإلى زوجتي وسأل: أين زوجك؟ قالت خرج

منذ أذان الفجر إلى المسجد ولم يعد بعدها. فقال: إذاً فقد هرب! فأجابته: وممن يهرب؟ وماذا فعل ليهرب؟ هزَّ برأسه وكأنَّهُ فهِم نظرية فيثاغورث. هكذا هم ضباط جيشنا قمة في الذكاء والعبقرية، لا ينافسهم إلا الجحش ذا الأربعة قوائم في المعرفة، وكأنهم ورثوا عقيدة البلادة والغباء أباً عن جد.

ثم قال لزوجتي: وهل تظنين نفسك ستهربين من العقاب أيضاً؟ فنحن نعرف مشاركتك في المظاهرات ضد الدولة، وسيأتي وقت نعتقل فيه النساء، ولكن حين نفرغ من الرجال.

وأثناء التفتيش اقترب جندي من زوجتي وهمس لها بصوتٍ خافت: يا أختي أنا من حمص، قولي لزوجك: إنه مطلوب للاعتقال، ويلاحقه جهاز أمن الدولة، فليهرب بسرعة ولا يعد.

وقبل أن يأمر الضابط الهمام جميع عناصره بالخروج من البيت أمسك فتاتي الصغيرة سنا، وبمكر الثعلب سألها: أين أبوك؟ فقالت كما علَّمتها جدَّتها: خرج إلى صلاة الصبح ولم يعد.

تبرّم الضابط حين لم يصل إلى جواب وخرج. وقبل أن

ينزلوا قال لعساكره: هل فتشتم سطح البناء؟ فأجابه أحدهم: ليس بعد سيدي! فقال: اصعد وانظر هل هناك من أحد؟ قالت زوجتي: انتظر حتى أحضر لك مفتاح باب السطح.

ومن حسن الحظ أنّ الشاب الحمصي هو من اختاره الضابط لتفتيش السطح، فلو اختار غيره لكنّا في خطر كبير، وحالٍ لا يعلمه إلا الله.

فقد كان سطح البناء مليء بفوارغ الرصاص، وذلك حين قام الشباب الثوار بالتصدي للجيش، وفكّ الحصار عن رفاقهم يوم اقتحام المشفى، ولم يخطر ببالنا أن ننظف السطح من فوارغ الرصاص، فصعد هذا الجندي إلى السطح وجال ببصره فيه بعجالة، ولما نزل نظر إلى زوجتي نظرة معاتب. ثمّ قال: سيدي! لا أحد على السطح.

كنا في هذه الأثناء نترقّب ما يجري بخوف وقلق، وكان معنا الأخ أبو كرمو وقد جلس على الكرسي مرتجفاً من البرد، وكنت ألبس رداءً سميكًا، نزعته عني وألبسته إياه، فلم أعد أشعر بالبرد وأنا أذرع المكان جيئة وذهابًا ثم أختلس النظر بين الفينة والأخرى نحو جيش الوطن وهو يتجول في الحيّ بكلّ عنفوان وقوة معلناً النصر المظفر على أبناء

وطنه: النصر على العزل والمدنيين، النصر على حيّ فيه شعبه الذي يفترض أنه يحميه، النصر على الدكاكين المغلقة والشوارع الفارغة والبيوت التي وقفت عاجزة أمام قوة جيش جرار.

وبعد قليل طلب مني أبو كرمو أن أخلع عنه الرداء الذي ألبسته إياه، فإذا بالعرق يغطي وجه الرجل وجسده، ويقول: لا أعلم هل انخفض ضغطي أم ارتفع؟ هدَّأت من روعه وطمأنته، فالجيش قد غادر البناء، وسيغادر الشارع قريبًا، والخطر سيزول بمشيئة الله.

ثم استرقت النظر مرّة أخرى أراقب الشارع، فإذا بجارنا المسيحيّ يقف إلى أحد ضباط الجيش وهو يكلّمه. جمَد الدم في عروقي وأنا أراه يكلمه، ذلك أن الجار بائع خمور وأنا لا أثق فيه. أشار إلي أخي عبيدة يطمئنني ولكنني بقيت أراقب لأرى كيف سينتهي الوضع، وإذا بالجار يدخل إلى بيته لدقائق ثم يخرج وبيده بعض من زجاجات الخمر يعطيها للضابط.

وحين رحل الضابط وجنوده وغادروا الحيّ تأكدت أنّ جارنا لم يخبر جيش الأسد عن مكاننا، ولم يَشِ بأحد، فهدأ

روع الجميع.

ثم شرعنا في تناول بعض قطع الجبن والخبز والبندورة التي أحضرها مسبقاً أخي عبيدة، فهو يحب دائماً أن يكون على أهبة الاستعداد، غير أنه يتأخر أحياناً في الأمور الهامة. لقد كاد بتأخّره اليوم أن يقضي علينا، ولكن الله سلّم، ولعلها رحمة الله أن نصطحب معنا هؤلاء الشباب، إنه لطيف خبير.

ثم تسللت من الصالة إلى البناء، والتقيت بأهل بيتي لأعرف ما الذي جرى. فأخبرتني بما قال لها العسكري الحمصي الشهم، وبما جرى من تفتيش. ثم أكدت لي أنّ رجلاً ملثماً كان يمشي برفقة الجيش ويدلّهم على بيوت المطلوبين للاعتقال.

هذا الملثّم[1] الذي لا نعرفه عاش بيننا، وضحك ولعب معنا، لعلّنا كنا معه في مدرسة واحدة، وجلسنا على مقعد واحد، وأخذنا العلم والأدب والأخلاق من معلم واحد، لذا هو يعرف بيوتنا واحداً واحداً، ولكن الذي يرضع الدناءة منذ طفولته من الطبيعي أن يغدر ببني جلدته، ويقف في صف

(١) كان للوشاة والمخبرين أثر سلبي كبير في حياة الناس، وكان لهم دور فاعل في رصد تحركات الثوار.

القتلة، ويكون عدواً لأهل بلده.

ولم نطمئن لمغادرة الجيش الحي، فقد تأكد لنا أنني مطلوب للاعتقال، وأن الجيش قد يأتي إلى البيت في أية لحظة، أو قد تفاجئنا سيارة مداهمة في ليلٍ أو نهار، ولم يعد البقاء في الصالة آمناً. لقد اقترحت على زوجتي أن أنتقل إلى بيت أهلها ريثما نجد حلاً. ولما غادر الجيش المنطقة كلّها إلى منطقة أخرى غادرنا الصالة، ونزلت إلى الشارع ووقفت في وسطه وأنا أتجول، وأحمد الله أن نجاني ومن معي من بطش الجيش الأسدي.

❊ ❊ ❊

تسوية وضع

في البيت الفارغ لدى أهل زوجتي -رحمهم الله- جلست أنا وأخي وحيدين سجينين نقيّم ما نحن عليه، فقد حُبسنا في البيت، ولا نستطيع مد رؤوسنا من النافذة، الجيش منتشر في كلّ مكان، وإن جاءته وشاية بنا فهذا يعني النهاية، لا محالة.

أما ثوار إدلب فقد خرجوا من قلب المدينة إلى أطرافها. وجيش النظام لا يملك من الرجال ما يكفيه لاحتلال كلّ الأرياف والقرى، لذا فقد تمركز في المدينة وترك الريف.

ولكن كيف لنا أن ننجو بأنفسنا ونخرج من سجننا؟ فنحن هاربان متخفّيان، ولا نريد لأحد أن يعرف أنّنا هنا في المنزل، فالعدو احتلّ كامل المدينة، واستتب الأمر له وقد قتل في هجومه على أبناء الوطن أكثر من مئة شاب، تمت تصفيتهم بدمٍ بارد.

قُتِلوا قنصاً على حدود المدينة، وبالقصف العشوائي على المزارع، كما أن قوات الأمن اعتقلت المئات من الناس وذهبوا بهم إلى ما وراء الشمس. يا لتعاسة النظام! فقد أعلن

انتصاره المؤزر في وسائل الإعلام على الإرهاب في إدلب، ولكنه في الحقيقة هو ذاته منبع الإرهاب.

وكان شاب من آل قصاص لم يعجبه مكوثنا في بنايته، فأرسل عن طريق زوجته إلى زوجتي رسالة مفادها أنَّ الجيش عرف مكاننا وربما يأتي في أي وقت ليعتقلنا. أما أنا فاستبعدت حدوثه، وانتظرنا لأسبوع دون أن تحدث أية تطورات، فلا الأمن جاء إلينا حيث نحن، ولا حتى قدم إلى منزلنا أو سأل عنا.

أما الصالة التي هي ركننا الدافئ، والتي كانت طيلة الأشهر الستة الماضية تعجُّ بالأصدقاء وبالثوار، فقد فرغت تماماً: فصديقي المثقف حمدو صفيّة الذي كان من الحزب الاشتراكي الناصري قديماً اعتقل، وجاري من آل الرنّة أيضاً أصبح سجيناً، ومن أصدقائي من غادر البلد، والكثير عزفوا عن المجيء خوفاً من أعين المخابرات المنشغلين بأمور المعتقلين، فلم يكن لديهم الوقت لأمثالنا.

وبعد عشرة أيام تقريباً جاءني صديقي المهندس سمير سويد[1] -رحمه الله- وهو من معارفي القدماء، وقد قربتنا

(١) قتله النظام في قصف على محكمة «إدلب» بعد تحريرها عام ٢٠١٦م، وكذلك

الرياضة أكثر، فهو حكم دولي بكرة الطاولة ومن المبدعين والمتفوقين في هذا المجال. أخبرني أن هناك ما يُسمى بـ(**تسوية وضع**) وعليّ القيام به، وذلك كي لا أتعرض للاعتقال المفاجئ. وقد أبلغني أنّ نقيب المهندسين يعرف محققاً في فرع أمن الدولة، ويضمن لي أن أدخل إلى الفرع المذكور وأخرج سالماً، وقد تمّ الكفّ عن ملاحقتي. ناقشت أخي وتوصلنا إلى أنه إن أردنا البقاء في المدينة فلا بد من هذا الحل.

سمير سويد أحببته في الله، فهو مثابرٌ في عمله، منضبط في مواعيده، لا يصلّي المكتوبة إلا في المسجد. هكذا هم الشهداء ذروة في الأخلاق ونقاء في السرائر.

أخذنا موعداً في اليوم التالي، ولما حان الموعد تركنا سيارتنا في حينا، وذهبنا ماشين على أقدامنا خوفاً من أن يسرقوا السيارة إن هم اعتقلونا.

وعلى باب فرع أمن الدولة أعطينا بطاقة الهوية للموظف الذي بدا وكأنه شيطان، فأمرنا بلهجة تَعَالٍ أن نبتعدَ عن الباب، وهذا ما جعلنا أكثر توتراً، فقد كان اللقاء الأول

استشهد عدد من الشباب في القصف على المحكمة.

سيئًا. وبعد دقائق حسبناها دهراً طُلب منا الدخول إلى الفرع، وأول ما لفت نظري حين دخلت أن المبنى قديم، وهو بالأصل مدرسة استولت عليه القوى الأمنية ليكون مقراً لها.

قلت في نفسي: هل من المعقول أن هذا المبنى يضمر كل هذا الخوف؟ هل من المعقول أن هذه الحجارة الهادئة مخيفة لهذه الدرجة؟ وهل يعقل أن في داخل هذه الغرف آلاف مؤلفة من قصص عذابات أهل المدينة وريفها، وأنّ جرائم لا حصر لها حدثت في هذا البناء؟

❊ ❊ ❊

قادنا العنصرُ إلى غرفة جانبية فإذا بموظف بدا أنَّه من أهل ريف إدلب، فمعظم موظفي أمن الدولة هم من أهل السنّة، من إدلب وريفها. أعطيناه بطاقاتنا فنظر إلى جهاز الحاسب الذي أمامه نظرة سريعة، ثم قال لأخي: أنت وضعك سليم ولا شيء عليك. ثم بحث عن اسمي وقال: أووف ما هذا؟ هل أنت فعلت كلّ هذا؟ أجبت مستغرباً: كلّ هذا، ما الذي تقوله يا رجل؟! وشعرت أن قلبي سقط تحت قدميّ، فما قاله يعني أنني لن أخرج من عندهم إلا

للقبر، وقد أتيت إليهم بقدميَّ. ولكن صديقي سمير طمأنني وهدأ من روعي. ثم قال العنصر: اذهبا إلى المحقق أبو عبدو، غرفته في المبنى الآخر.

غرفة في ممر طويل كانت على اليسار مباشرة، الباب نصف مفتوح، وإذا بصوت من الداخل يقول: تفضلا!

دخلنا إلى غرفة بسيطة فيها مكتب بسيط أيضاً كحال غرف أكثر مديريات الدول، وفي الغرفة التقينا برجل عريض المنكبين طويل القامة، يقوم من كرسيه ويأتي نحونا مصافحاً: أنا أبو عبدو شاوي، محقّق في فرع أم الدولة.

فكرت بيني وبين نفسي: شاوي؟! إذاً هو من إدلب المدينة، من جماعتنا[1]، وسوف يساعدنا إن شاء الله. بدأ أبو عبدو يكلّمنا عن وضع البلد وعن ضرورة الابتعاد عن المظاهرات، وأنّ علينا أن نكون في هذه المرحلة سبباً بتهدئة الأوضاع. وفي مجمل حديثه أقسم الرجل أنّه لولا خوفه على البلد ومستقبلها لكان أوّل من انشقَّ عن نظام الأسد.

كانت هذه الجملة كفيلة أن تزيح الخوف عن قلوبنا،

(١) أي هو ابن بلدنا.

فالرجل معَنا قلباً وقالباً. وهذا ما أثبتته الأيام فعلاً، فقد حبسه رئيس الفرع وعذَّبه أكثر من ثلاثة أشهر، وكانت تهمته مساعدة الثوار. وعندما أرادوا التخلص منه ومن كلّ الذين يشكُّون بأمرهم من كوادر أمن الدولة أرسلوهم إلى معركة الخزانات[1] التي جرت لاحقاً في خان شيخون، ولم يرجع منهم أحد.

ولكنّ هذا الرجل الشريف هرب بعد أن أُفرج عنه، ورفض أن يذهب إلى حرب لا ناقة له فيها ولا جمل. وهو الآن لاجئ بأوروبا يتمتع بحياة إنسان كريم تليق به.

خرجنا ممتنين له بعد أن عملنا تسوية وضع على أن نرجع مواطنين عاديين غير ملاحقين من فروع الأمن، وألا نتعاطى السياسة وألا نقف مع الثوار.

وقعنا على هذا التعهد، والنظام يعرف أنّنا وقّعنا مكرهين مجبرين، ونحن نعرف أن النظام كاذب غادر، لا وعد له ولا شريعة تحكمه.

❊ ❊ ❊

(١) حدثت في خان شيخون بين شهري آذار وأيار من عام ٢٠١٤م

في فرع الأمن الجنائي

بعد أن قمنا بتسوية وضع بفرع أمن الدولة أصبحت الأمور أسهل، فرجعنا إلى ماكنَّا عليه قبل دخول الجيش من حراك ثوريّ، ولكن بشكل مقنّن وعلى مستوى ضيق.

جاءني عبيدة يخبرني بأنّه في الغد سيعود الحراك السلمي، وستخرج مظاهرة من جامع سعد بن أبي وقاص. فأجبته: أنا متأكد أنها ستكون مظاهرة فاشلة، فلن يدعك الأمن تخرج بأيّة مظاهرة، وإن خرجت فسوف تجد الجيش كله بانتظارك. أما أنا فلن أخرج فالعيون تراقبنا بكل حركة وسكون، وما خرجنا من أوّل مطبّ إلا بلطفٍ من الله. فقال: كما تريد.

وفي اليوم التالي جاءني مسرعاً مستعطفاً فولده وولدي قد ذهبا للصلاة في جامع سعد بن أبي وقاص، وعلينا اللحاق بهم وحمايتهم، أو على الأقل نخرج في المظاهرة مع الشباب. أذعنت للأمر من أجل الأولاد وأنا أستشعر أن الوضع لن يمضيَ على خير. وقبل دخولنا للصلاة وعلى باب المسجد رأينا الجيش الباسل وقد اعتلى جنوده وقناصوه أسطح المنازل المحيطة بالمسجد باللباس الميداني مع الصدريات

الواقية من الرصاص، وكأن جيش بني صهيون صار على حدود المسجد.

نظرت إلى أخي معاتبًا: سامحك الله، ما هذه الورطة! ثم دخلنا للصلاة.لطالما شعرت قبيل تسليم الإمام بأن قلبي سيخرج من مكانه بسبب شدة تسارع دقاته، ولم لا؟ فكلّ متظاهر يضع كفنه بين يديه، ويعرف أنّ القتل قد يكون من نصيبه في أية لحظة. ولكن هذه المرة ازدادت ضربات قلبي حتى ظننت أنّه سينخلع هاربًا دوني.

بعد أن سلّم الإمام صاح المنادي «الله أكبر... حرية» وهبّ الجميع يهتفون للحرية والشهيد والمعتقل. لحقتُ بهم لأجد وحوش الجيش يركضون نحونا وهم يأمروننا بالتوقف والانصياع لأوامرهم، لم أرضخ لهم وركضت وهم ورائي وأصوات طلقات الرصاص تلحق بي. وحين وصلت نهاية الطريق نظرت خلفي فإذا بكلب من كلاب أسد قد أمسك أخي عبيدة من كتفه معتقلاً إياه، بالطبع لم أستطع فعل شيء لأخي فهم مدجَّجون بالسلاح وأنا أعزل لا أحمل حتى حجراً.

رجعت إلى بيتي وحيداً أضرب أخماسًا بأسداس، فأمّي

مريضة وتحمل قلباً ضعيفاً وتخاف على أولادها أشدّ الخوف، فكيف سأخبرها؟ وماذا سأقول لها؟ لعلها لا تحتمل الصدمة. قررت ألا أخبرها وأن أحاول البحث عن وساطة له لأخرجه، ولو دفعت لأجله مئات الآلاف من النقود، إن لزم الأمر.

وفي يوم السبت بدأنا نحاول اقتفاء أثره عن طريق أصحابٍ لنا فعرفنا أنه في فرع الأمن الجنائي. حمدت الله، إذ أن الأمن الجنائي يعدُّ فندقاً من خمسة نجوم مقارنة بفروع الأمن الأُخرى.

وأتذكر أنّ هناك قاضياً من أقاربي بحثت عنه إلى أن وصلت إليه، فاستقبلني الرجل بكلّ رحابة صدر وبشاشة وجه، فلما عرضت عليه المشكلة قال لي: الأمر بسيط، قد لا يطول الأمر أكثر من شهر، ثم سيعرض على القاضي ويخرج.

فقلت له: يا سيادة القاضي! وهل تعلم ماذا يعني أن يقضي المرء شهراً بزنازين الأسد؟ وهل تعلم مدى الظلم والقساوة التي تمرّ على المعتقلين هناك؟!

وبدأت أذكّره بصلة الرحم التي بيننا: يا سيادة القاضي! ألسنا من نفس العائلة؟ أليس أبوك وأبي أبناءَ عمومة؟ ألست أنت من إدلب التي هي موطني وموطنك؟ فقال معتذراً: والله -يا بن العم- سيقولون عني غداً: إنّني وقفت مع أقاربي وساعدتهم. قلت مستهجناً: وإن لم تساعد أقاربك فمن ستساعد؟ وإن لم يكن الأقربون أولى بالمعروف فلمن ستقدم معروفاً؟!

هنا تذكرت أن القضاء لم يكن في يوم مستقلاً، فما بالك وهذه الأيام العصيبة. رجعت إلى البيت خالي الوفاض. أما أمي فكانت كل يوم تسألني عن عبيدة فأجيبها: إنني طبعاً أراه فهو جالس في الصالة. فتدير وجهها غاضبة وهي تقول: منذ يومين لم يكلمني. فأسارع إلى القول: لا تكلميه ولا تسألي عنه حتى يكون هذا درساً في المستقبل. ولكنها كانت تحاول أن تنزل الى الصالة لتراه، فهي معتادة على أن يأتي إليها صباح مساء. فتساءلت: ما الذي حل به؟ لم كلّ هذا الجحود؟

انقضت أربعة أيام دون أن تعلم أمي بشيء، حتى جاء اتصال هاتفي من إحدى القريبات، فلما تكلمت مع السيدة

الوالدة سألتها: ماذا حصل مع عبيدة هل من جديد بشأنه؟ فتصرخ أمي: وما الذي جرى لعبيدة؟ فتقطع القريبة الاتصال.

وبسرعة البرق تنزل أمي إلى صالة الألبسة وهي تنظر إلي نظرة المُغضِب: أين أخوك عبيدة؟ فعلمت أنه لا سبيل للهروب منها، فقلت وابتسامة المعتذر على محياي: والله -يا أمي- اعتقل في المظاهرة. ثم أخبرتها أنه سيُعرض على القاضي. فقد هيّأ الله لنا بعض أولاد الحلال، وتكلموا مع رئيس فرع الأمن الجنائي.

هدأَت أمي عند سماعها هذه الكلمات. وفعلاً خرج بعد ساعات، وبدا كأنّه مسجون منذ سنوات: نقص وزنه وتغير لونه. أربعة أيام كانت كفيلة أن تغير ملامح إنسان، فما بالنا بمن قضى عشرات السنين في زنازين النظام بقليل من الطعام وكثير من التعذيب والمهانة؟

وتستمرُّ الثورة جاريةً في عروقنا دون توقف ولا خوف، فولدي وابن عبيدة دائما الاتصال برفاقهم من ثوار الريف، يتردّدان على مقهى انترنت لأحد الأقرباء، وهناك يعقدون الجلسات مع أقرانهم من شباب الحي.

انشقاق

وبعد يومين يأتي إليّ محمد ونظراته تنبئ بأن خطباً ما قد حصل. أخذني بعيداً عن الحاضرين في الصالة ليكلمني. يومها أحسست أنَّني أكلم رجلاً حقاً. أحسست أن صغيري له دور في مجتمعه. وحين أصبحنا وحدنا قال لي: يا أبي، هناك عسكريان خارج الصالة ينتظران أن تساعدهما، فهما يريدان الانشقاق عن الجيش، وقد تكلّمت مع صديقهم الحمصي الذي انشقّ سابقاً، وأرسلهم إليّ لنرى لهم مخرجاً. وأنت تعلم أن مداخل البلد ومخارجها مغلقة برجال الجيش والأمن، وأنهما لا يستطيعان المغادرة، وهما لا يعرفان طرق المدينة.

قلت له دون تردد: أحضرهما إليّ. وفعلاً دخل عسكريان بلباس الجيش وعرَّفا بأنفسهما، وقالا: إنهما من ريف حلب، ولا يريدان أن يضعهما الجيش في جبهة مقابل أهليهم، ولا يريدان أن يضعا في أعناقهما دم بريء. فقلت لهما: قد تأخر الوقت والساعة اقتربت من الخامسة مساءً، والمغرب أذّن والظلام حلَّ، فهل لكم أن تعودوا إليّ صباحاً؟ فقالوا: إن

رجعنا إلى ثكنتنا سيفتضح أمرنا ولن نستطيع أن نهرب ثانية، وقد يُعدموننا. قلت: لن أدعكم تعودون. ثمّ قمت بالاتصال بأحد الثوار في مدينة معرة مصرين التي تبعد عن إدلب مسافة خمسة عشر كيلو متر، فأجابني الثائر بالموافقة.

وخلال عشر دقائق وصلت سيارة إلى صالتنا، وثب الشابان بفرح داخلها. وبعد نصف ساعة اتصلا بي من عند هذا الثائر ليتقدما لي بالشكر. ولله الحمد!

حين أنقذنا هذين الشابين لم نفكر بالعواقب: فماذا لو أنّ المخابرات هي من أرسلتهما إلينا؟ وماذا لو أنّهما لم يتمكّنا من الهرب ووشيا بنا؟ ولكن الله لطف بنا مرة أخرى. فلك الحمد يا رب!

* * *

بطلي الصغير غيث ابن الثلاثة عشر عاماً رافق المشهد وعاينه، وشعر أنه أكبر الخاسرين، فكيف لأخيه محمد أن يعلو كعبه في مسألة انشقاق العسكريين؟ وماذا أفعل أنا؟ أأنتظر الجميع وهم ينظرون إلى محمد نظرة بطل، وينظرون إليّ نظرة الطفل الصغير؟ سأريكم يا أبي ويا أخي ويا عمي

ويا أمي! ويا كلّ أهل إدلب أنني أيضاً أستطيع أن أضع بصمةً تسجّل في تاريخ عائلتي وتاريخِيَ الشخصي الذي بدأ مع بداية الثورة.

وبوثوق الرجل وبشجاعة المحاوِر ذهب إلى العسكري الذي يقف حارساً عند باب المشفى، وجاذبه أطراف الحديث وتكلّم معه بكلّ جرأة عن الثورة ومناقبها وعن النظام ومساوئه، وطلب منه مباشرة أن ينشقّ وقال له: أبي سوف يخلّص لك الأمر بكلّ حرفية وبساطة.

في الحقيقة إنني كنت أشد ما أخاف من لسان غيث، فتقديره للأمور على صغر سنه كان متعجلاً فيه ولا يستطيع أن يخفي ما في قلبه، وكنت دائماً أقول له -قبل الثورة- أن لسانك سيدخلك ويدخلني في مشاكل لا حصر لها، وكان مشاغباً كثير المشاكل بين أقرانه وأولاد الجيران، وكان محبوباً من أصحابي وله علاقات اجتماعية مع كلّ من يأتي إلى صالتنا.

وكان إذا أراد أن يشتري شيئاً وأنا غير راضٍ عنه لا يترك صديقاً لي إلا ويأتيني به واسطة ليكلمني ويترجاني أن أنفّذ طلب غيث الصغير. وبعد أن كلَّم عسكري المشفى بلحظات

ودون سابق إنذار رفع يده العسكري ولطمه على وجهه الصغير لطمة أظنّ أن أثرها بقي إلى يومنا هذا، وأمسك به وجرّه إليّ جراً.

رأيته آتيًا من أول الشارع مع العسكري، فقلت في سرّي: اللهم أسمعنا الخير ونعوذ بك من الشرّ. وصل الحارس إليّ وقصّ عليَّ ما قاله له غيث، وحذّرني أن الأمر لو حصل مع غيره لرأينا نتائج لا تحمد عقباها. شكرت العسكريّ وأنا أنظر نظرات الغضب والتعنيف نحو صغيري الذي أطرق خجلاً، فهو لم يحصل على بطولة ولم ينل ثناءً، إنما تبهْدَل. وأصبحت قصته تروى لأجل الضحك والتندّر بها إلى الآن.

❊ ❊ ❊

المصائب لا تأتي فرادى

في أحد الأيام جاءت إحدى قريباتي إلى الصالة، وهي من الحرائر اللاتي آمنّ بالثورة، جاءت وعلامات الارتباك بادية عليها، ثم قالت لي: أرجوك أن تنقذني من هذه المشكلة التي وضعتنا أختي بها. فسألتها: خيراً إن شاء الله؟ وقلت بنفسي أرجو ألا تكون مشكلتها كمشكلة غيث. فقالت: لقد تكلّم الصحفي لؤي دعبول[1] طالباً مكاناً يبيت فيه الصحفي المعروف عبيدة البطل[2] رفقة زميله مهند غفير[3]، ولو علم أذناب النظام بهما لقامت القيامة. وتابعت بأنهما الآن داخل مدينة إدلب، وهما الآن في بيت أختي الكبيرة، وهي مرتبكة لا تدري ماذا تفعل. أجبتها مباشرة: فلنذهب.

ركبنا سيارتنا، أنا وأخي عبيدة رفقةَ هذه السيدة، وحين وصلنا إلى البيت المذكور رأينا مشهداً جعلنا نضحك

---

(١) استشهد -رحمه الله- بتاريخ ١١/ ٢/ ٢٠١٣ م، وذلك بانفجار سيارة مفخخة، على معبر باب الهوى الحدودي. كان صحفياً رياضياً، ومع أول أيام الثورة انضم إليها.

(٢) مراسل لدى قناة «أورينت» المعارِضة. اختطف بتاريخ ٢٥/ ٧/ ٢٠١٣م بتل رفعت في ريف حلب الشمالي.

(٣) ينقل الأخبار لبعض القنوات الإعلامية.

ملء أفواهنا، فالشابان متنكران بملابس نساء ولم ينسيا الشعر المستعار. سلَّمنا عليهما، وطلبت منهما تغيير ملابسهما حالاً، ثم نزلنا بعد أن أزلنا كتلة من صخر قاس عن قلب السيدتين. ركبنا سيارتنا جميعًا متجهين إلى صالتنا، أنزلتهم قبل شارعين وقلت لهم: تأتون إلى الصالة بهدوء، وتدخلون إليها بصفتكم زبائن حتى لا نلفت نظر أحد إليكم.

وصلا إلى الصالة ودخلا بكلّ أمان، ثم قمت بإخراجهما من الباب الخلفي إلى مكتب محاماة لزوجة أخي.

بعد أن اطمأنَّا سألتهما: كيف دخلتم المدينة وهي محاطة برجال الأمن؟ قالا: دخلناها مع أحد الرعاة ومشينا كما تمشي الخراف، ومن ثمَّ تنكرنا بملابس نساء، وجاءتنا ابنة خالك ثم اصطحبتنا إلى بيتها.

حين سألتهم عن سبب دخولهم أجابوا: بعد غدٍ ستأتي (اللجنة العربية) وتسير بكلّ حرية لتسأل الناس عن رأيها بنظام أسد، ثم ستكتب تقريرها للجامعة العربية. لقد دخلت بابا عمرو في حمص وسألت الناس وأجابوها بكلّ حريّة.

قلت لهما: صحيح أن بابا عمرو منطقة محاصرة من قبل

النظام من خارجها ولكن لا يجرؤ رجال الأمن على خطوِ خطوة واحدة فيها. أما نحن فالجيش منتشر في كلّ مكان وأنتم من أشد المطلوبين للنظام، ومساحة حركتكم ضئيلة جداً، وستفقدون حياتكم دون داعٍ، وتصرفكم من أكبر الأخطاء، لذا لن أساعدكم في أمرٍ يؤدي إلى أن تسلموا أنفسكم لمخابرات النظام. ثم قمت بالاتصال بوالد عبيدة البطل وأمه، وأخبرتهما أننا جميعاً في خطر، وأنَّ عليهم الرحيل والخروج من إدلب. اقتنع الأب، وفي الليل بعد أن أغلقت المتاجر أبوابها جاء والد عبيدة بطل إلى صالتنا حيث كانوا، وأخذهم وأخرجهم بنفس الطريقة التي دخلوا فيها.

ما هذا يا ثورة سوريا؟ وما هذه الأحداث التي أمرّ بها؟ لم أفكر يوماً أنني أستطيع المخاطرة بحياتي هكذا. ولم أفكّر في حياتي أنني أستطيع تخطي الجدار المعشق بالحديد، وأستطيع هدم أجزاء منه، وأخلع خوف سنوات ماضية.

* * *

وفي صباح يوم خريفي استيقظنا والحي يعج بعلوج[1] أسد

(١) لها عدة معان، منها الغليظ والشديد، وكذلك الحمار والسمين وحمار الوحش السمين. وجدت طريقها في لغة السياسة على يد وزير الإعلام العراقي

وأذنابه. لم أكن خائفًا، فأنا قد سويت وضعي في أمن الدولة، وأستطيع البقاء في البيت بأمان تام. ولكن رغم ذلك بقيت أذهب إلى أمن الدولة كل شهر لأحصل على ورقة التسوية، فقد كان عليّ أنا وأخي أن نسوّي وضعنا شهريًا. وقد بلغت الثقة بيننا وبين المحقّق في أمن الدولة ذروتها من العلاقة التي ظنناها صارت شخصية، بعد أن أصبحنا نراه بشكل دوريّ ونتبادل معه أطراف الحديث كلما زرناه.

وفي تلك الأيام كانت الثورة في عموم ربوع سوريا، والنظام الغبي يتخبط. كنا نعيش بين روحٍ تحلّق مع الثورة وانتصاراتها وتفوقها على النظام، وواقعٍ قاسٍ مفروض علينا بسبب القبضة الأمنية الحديدية على المدينة، والتسوية التي نحتمي بها من الاعتقال أو القتل.

في هذا اليوم تقول لي ابنتي الصغيرة سنا التي لم تتجاوز الثامنة من العمر: أبي لقد شاهدت رجال الأمن والجيش في حيّنا، وهم يدخلون إلى بيوت جيراننا. لم آبه لهذا الأمر معتمداً على ورقة التسوية التي معي، واثقًا بوعود أمن الدولة والمحقّق.

الأسبق محمد سعيد الصحاف، في أواخر عهد صدام حسين، حين اقتحم الجيش الأمريكي العراق.

وما هي إلا دقائق حتى يقرع باب بيتي قرعاً يكاد يُسقطه من مكانه! فلما فتح ابني غيث الباب حتى ناداني بصوت مرتجف خائف: إنهم يريدونك!

أسرعت نحو الباب وقد بدأت أشعر بنُذر الشرّ تقترب، فإذا ببغل من ضباط الجيش يملأ الباب بجثته الضخمة، وهو يلهث ولا يكاد يستطيع أن يتنفّس، وتملأ حبات العرق وجهه الكالح السواد، وحوله رأيت أكثر من عشرة كلاب من الجنود المسلحين. حاول أن يرفع صوته قدر استطاعته ليرهبني لكن دون جدوى، فقد بدا صوته متهدجاً ضعيفاً من شدة التعب، فأنا أسكن في الطابق الرابع ويبدو أن هذا البغل كان شديد الانفعال، فصعد السلم راكضاً حتى أن قلبه كاد أن يتوقف. ولما برزت له قال لي بصوت هزيل مبحوح: أتعلم أني كابدت كل هذا العذاب لأجلك؟ أخذت نفساً عميقاً ثم بكل برود أعصاب أجبته: لأجلي؟ سامحك الله، لم كل هذا العناء؟! فأجاب: لقد أتيت المرة الماضية وكنتَ هارباً ولم أستطع إلقاء القبض عليك، ولكن هذه المرة تمكَّنتُ منك.

استجمعت قواي وقلت له: لقد أخطأتَ يا سيادة الضابط، فعلاقتي مع الدولة أصبحت على أحسن ما يكون، وقد

ذهبت إلى أمن الدولة وليس لي أية مشكلة مع النظام أو الحكومة أو الجيش أو الشرطة أو أي قسم من أقسام الدولة. وقف مصدوماً غير مصدق لما سمعه مني فالتقارير الأمنية المكتوبة بي، وخاصة من المخبر جهاد دويدري -كما علمت لاحقاً -كانت كثيرة، ويبدو أن الكثيرين قد وشوا بي عند النظام بسبب وبغير سبب، وتابعت: وها هو أمن الدولة أعطاني ورقة تسوية وضع تؤكد كلامي.

فطلب الضابط الورقة مني، فقدمتها له، ثمَّ قلَّبها بين يديه غير مصدِّق، فقد كلَّف نفسه ومعه كلّ هؤلاء الجنود ليقبضوا على هذا الإرهابي الواقف أمامه، ولم تطاوعه نفسه أن يعود بخفي حنين، فاتصل عبر جهاز اللاسلكي بقيادة الفرع طالباً منهم إعادة النظر في أمر اعتقالي، ولكن بدا أن الضابط المناوب لم يسمع الرسالة وبدلاً من أن يناقشه بها طلب منه بصوت غاضب أن يعيد السيارات والجنود إلى الفرع بسرعة، فأسقط في يده واحمر وجهه غضباً وحار في أمره، وزاد تعرق وجهه. وحين وجدته على هذه الحال، قلت له: لماذا تقف على الباب؟ تفضل لن نأكلك! تفضل واشرب شيئاً بارداً.

لم يصدق هذا البغل أن دعوته للدخول، فقد جفّ ريقه، والعرق يسيل من وجهه كنهرٍ جارٍ، فدخل وخلفه حاشيته،

وجلس في غرفة الضيوف التي هي قرب الباب مباشرة، وانتشر عساكره ملء البيت. بعد أن شرب العصير وارتاح من صعود السلالم، وقدرت أن أستوعب غضبه، قال لي: ماذا تريدون من هذه المظاهرات؟ أتريدون أن تخربوا البلد؟ فقلت له: والله لم نرد إلا الخير، خرجنا ببضع مظاهرات نطلب فيها قليلاً من تحسين أوضاع البلد، ولكن الوضع انقلب وانفلتت الأمور ولم نشارك في الثورة إلا ببعض مظاهرات.

قال: وكيف تُركت تخرج من فرع أمن الدولة وقد دخلته بقدميك؟ وما كانت تهمتك؟ قلت: بكلّ بساطة طلبوا منّي أن أوقّع على ورقة بعدم الخروج بأيّة مظاهرة وانتهى الوضع خلال خمس دقائق فقط. ازداد الارتباك على وجهه، فقد كانت المعلومات التي لديه مختلفة كليًا عما قلته.

بادرت بسؤاله: من أين أنت؟ قال: من مشتى الحلو[1]. فقلت له مجاملاً: والله أحلى منطقة، وأحلى ناس. بدت علامات الرضى على وجهه، فاستسلم قائلاً: هل تعلم أن زوجة أخيك عبيدة ضَحِكَت عليّ في المرة السابقة؟ قلت متغابيًا: كيف ذلك؟ فأجاب: عندما جئت المرة الماضية

(١) منطقة سياحية قرب حماة رائعة الجمال، أكثر أهلها من المسحيين.

طالبـًا أخـاك صعـدت إلـى بيتـه ولـم أجـد إلا زوجتـه، فسـألتها عـن زوجهـا، فقالـت: لقـد طلَّقْتُـه لأنـه معـارض وأنـا مؤيـدة للنظام! وبهـذا تركتهـا، ومن ثم اكتشـفتُ أنهـا ضحكت علي!

بعـد مـدة نـادى الجنـود وغـادروا بيتـي ثـم بيـت أخـي عبيـدة والـذي بـدوره أظهـر لـه تسـوية الوضـع أيضـًا، وجلـس معـه وطيـب لـه خاطـره، ثـم أقفـل العلـجُ ومـن معـه راجعيـن إلـى الفـرع خالـي الوفـاض دون أن تطالنـا يـده رغـم أنـه عثـر علينـا في بيوتنـا ورآنـا بعينيـه، ولكـن لطـف الله أحـاط بنـا.

وبعـد عـدة أسـابيع ذهبـت إلـى أمـن الدولـة لآخـذ ورقـة التسـوية الشـهرية دون أن يذهـب معـي عبيـدة، دخلـت إلـى مكتـب أبـو عبـدو وتحدثـت معـه، فقـال لـي: سـألغي كلّ التقاريـر الكيديـة التـي كُتبـت فيـك، وسـأقفل ملفـك نهائيـًا. لا تقلـق.

ثـم اتصـل بأكثـر مـن غرفـة داخـل الفـرع فـإذا بعنصـر يقْبِـلُ ومعـه ملـف كبيـر، يضعـه بيـن يـدي المحقـق. بعدهـا أطلعنـي أبـو عبـدو علـى كل مـا كُتـب عنـي لفـرع الأمـن.

كان أوّل تقريـر وصلهـم يشـي بـأني اجتمعـت مـع قيـادة الثـورة بشـكل كامـل. والتقريـر الثـاني يقـول: إننـي أنسـق مـع المدعـو أبـو كنجـو، وهـو أحـد قـادة الثـورة المسـلحة. والتقريـر الثالـث

يقول: إنني قبضت من قناة أورينت مبلغ خمسة عشر مليون ليرة سورية! وأقسم بالله لا أعرف مكان مجلس الثورة ولم أجتمع مع أبو كنجو وقتها، ولم آخذ قرشاً من أورينت أو غيرها. أما التقرير الرابع فقد صدق من كتبه، لقد كانت صالتي مقراً صغيراً للثورة.

فنّد المحقق ما جاء في التقارير، ووقّع أسفل الورقة، ثم طلب توقيعي أيضاً على نفس الورقة، وقال لي: انتهت مشكلتك من فرعنا كيوم ولدتك أمك! يا لهذا الشهم من بني جلدتنا ومن أبناء بلدي. لو أن هناك الكثير من هؤلاء الشرفاء لما وجد النظام ورئيسه طريقاً لقتلنا. فهل يقتلنا الرئيس بيديه أم بزبانيته وأعوانه؟!

وبعد أن انتهينا شكرته، ليس لأنّه خلّصني من هذه الورطة فحسب، بل لأن الأشراف يجب أن يُشكروا وأن يشار إليهم بالبنان.

ولم يمضِ على هذه الحادثة شهرٌ إلا وأبو عبدو يتصل بي ليلاً: ما هذا الحظ الذي لديك؟ اليوم وقَع في يدي أمر باعتقالك موجوداً وإحالتك إلى دمشق، ولكنني أوقفته فوراً. أجبته: خيراً إن شاء الله؟ فقال: هناك تقرير جديد يشي بك،

وأنت متهم بتوزيع منشورات في جامع الشيخ برغل[1] . قلت: والله لا علم لي. فقال: عليك أن تأتي إلى الفرع غداً صباحاً لنحاول حلَّ هذه المسألة.

وفي الوقت المحدد صباحاً قرعت باب مكتب أبو عبدو، ودون أن أدخل خرج وأشار إليّ أن أتبعه إلى غرفة المحقق الجديد، وكان المحقق هذا مسؤول الأديان في فرع أمن الدولة!

قلت في نفسي: حتى الأديان لها مكاتب تحقيق خاصة بها؟ نعم، إنها دولة البعث والرعب.لم تترك ديناً ولا مذهباً ولا فناً ولا رياضةً ولا سياسةً ولا اقتصاداً ولا حتى دعارةُ إلا وجعلت لها في كل فرعٍ مكتباً. فكيف لدولة الرعب أن تستمرّ لولا هذه القبضة الأمنية الحديدية التي مارستها على الناس طول مدة اغتصاب الهالك حافظ أسد وزبانيته ورجاله الأوغاد وولدَيْهِ للسلطة؟!

فتح أبو عبدو باب الغرفة وقال مازحاً لزميله المحقق الجديد: هذا الإرهابي الذي كنا خائفين منه. اجلس معه واستمع إليه، فلا اعتقد أنّ له علاقة بكلّ ما كُتب عنه. ثم

(١) من المساجد القديمة في المدينة، يقع في وسطها.

تركني عنده وخرج.

سلّمت على المحقق الجديد، وقد أخبرني أبو عبدو سابقًا أن محقّق الأديان من قرية حربنوش[1] التابعة لمدينة إدلب، وهذا يجعلني أطمئن، فهو من بلدنا ومن أهلنا ولن يضرني إن شاء الله. بادرته بالكلام: هل تصدّق أني ما فكرت يومًا أن أدخل فرع أمن وأجد موظفين مثلك أو مثل الشهم أبو عبدو؟

لامست هذه الكلمات قلب الرجل فنظر إليّ بتودد ودار حديث بيننا عن عائلته وقريته، وعن أيام دراسته وعمله مع أبيه في الزراعة، ونحو ذلك. وبعد ساعة من الحديث العام أخبرني أن أحدهم شاهدني أنا وزوجتي نوزع منشورات ضد النظام والجيش.

أجبته بأن المسجد ليس فيه نساء، وكل ما في الأمر أني أديت الصلاة، وعند الانتهاء منها رأيت أوراقًا صغيرة في باحة المسجد. تناولتها لأقرأ ما فيها ثم تركتها لأنّها ليس فيها جديد. ومعي أكثر من خمسة شهود على هذه الحادثة، فقد كنت خارجًا إلى باحة المسجد مع الأصدقاء.ثم فإني

(١) تبعد عن إدلب نحو ٢٠ كم.

وزوجتي معروفان في حيّنا، فكيف لها أن تجلس على باب المسجد بصفة متسولة؟ هذا كلام لا يعقل!

وكما فعل أبو عبدو المحترم أخرج المحقق الجديد ورقة ونفى التهمة الجديدة وقال: لقد انتهى الوضع، ولم يتجاوز الكلام فيه دقائق. قلت له: يا أستاذ، لو أني فعلت هذا الأمر فحاكموني، ولكن لا تتركوا المخبر الكاذب طليقاً، يفعل ما يريد ويتهمني كل يوم بما لم أفعله أنا وغيري، فهو يخرب الوطن هكذا.

قال بلهجة قاطعة: لا! المخبر نحن بحاجة له، وهو عيننا التي لا تنام في البلد، قد يكون أخطأ في التقدير، ولكن كلّ التحية لأمثال هؤلاء الأشخاص.

ولابد أن أذكر تتمة القصة التي حصلت لاحقاً، فهذا المحقّق كان من الرجال الذين أُرسلوا إلى خان شيخون ليكون في مقدمة الجيش في معركة الخزانات ولم ينج منهم أحداً.

❊ ❊ ❊

انشقاق معاون قائد الشرطة

أبو محمد رائد في سلك الشرطة. كان مدير ناحية سراقب، وبعد أن حررها الثوار نُقِلَ إلى إدلب ولم يكَلَّف بعمل جديد. كنا نجلس مطولاً في الصالة، فهو كذلك مؤيد للثورة.

أتاني ذات يومٍ ليخبرني بأن معاون قائد الشرطة يريد الانشقاق عن النظام فهل من سبيل لإخراجه من المدينة؟ قلت: إن شاء الله نبذل ما نستطيع ولن يخيبنا الله.

وهنا خطر ببالي ضابط طيّار متقاعد أيضاً برتبة عميد، هو من آل قواص[1]، وهو عم أحد أصدقائي عرفني عليه سابقًا، وقد كان يتردد إلى صالتنا لشراء بعض الألبسة الرياضية.

عرَضْت عليه الذهاب إلى السيد معاون قائد الشرطة فوافق، وكان العميد المتقاعد ذا شخصية مهيبة وطول فارعٍ.

(١) كان العميد المتقاعد هو الكابتن الاحتياطي لطائرة «حافظ». وقد قال لي مرة مازحًا: مدةَ خمس وعشرين سنة لم يركب معي «حافظ»، فكنا في كلّ زيارة يزمع «حافظ» القيام بها نجهز الطائرة ونجهز أنفسنا وننتظر، ولا نعلم أنه وصل إلى وجهته إلا من نشرات الأخبار. قلت: هذا مفهوم لأن الضابط من أهل السنة وحافظ ونظامه يخافون من كل أهل السنة.

لبس نظاراته الشمسية وبيجامة الأديداس الرياضية، التي اعتاد الضباط على الخروج بها، وذهب إلى معاون قائد الشرطة، ثم قرع الباب ودخل بهيئته تلك، وقال له: إن الشباب (يعني نحن) أرسلوه ليبحث معه كيفية خروجه!

ذُهِل العميد واصفر وجهه وجمد الدم في عروقه، ونفى معرفته بأي شيء عن الموضوع، وأن هناك خلطاً في الأمر. صديقي أنهى الموضوع بسرعة حتى لا يتطور، وخرج من مكتبه، وعاد إليّ حائراً، ثم قال: كدت أن تورطني في مشكلة لا يعلم تبعاتها إلا الله. إن معاون قائد الشرطة لا يريد الانشقاق، ولا يعلم شيئاً عن هذا الموضوع. فقلت له: وهل ذهبت إليه بهذا الشكل؟ فهزَّ برأسه. فقلت له: والله لو جئتني هكذا وأنا أعرفك وتريدني أن أنشقّ عن النظام لخفت منك وأنكرت معرفتي بك، فضحكنا طويلاً بعدها. وهكذا مرت مشكلة أخرى بلطف من الله.

وفي نفس اليوم جاءني الرائد أبو محمد وقال لي: أأنت بعثت صاحب النظارات؟ قلت: نعم. قال: يا رجل، كاد معاون قائد الشرطة أن يُقضى عليه من هول المفاجأة. كيف ترسل رجلاً غريباً بهذه الشخصية وبهذا اللباس ليحدثه عن

الانشقاق داخل مكتبه؟! أتريد أن تقضي عليه؟ لقد قلت لك أن تبعث بواحد من الثوار لا أن تبعث الثوار جميعهم! وتابع: على كلٍّ حال وللمصادفة، فالبارحة وبعد أن تركتك، جاءه كتاب تقاعده وسيترك وظيفته في نهاية الأسبوع ويرحل. وأنا أيضًا سأرحل في هذا الأسبوع أيضًا. فسألته: وكيف ستغادر البلد؟ فقال: لا تخف عليّ، سأتدبّر أمري، وإن لم أستطِع فسأطلب منك المساعدة.

ومن يومها لم أرَ هذا الرائد، وقد سمعت أنه هرب نحو الشمال السوري، وهناك فتح مكتبًا للعقارات في المدينة الحدودية سرمدا.

* * *

وقُبَيْل إغلاق الصالة، وإذ بإحدى الصبايا اللائي يعملن معنا تناديني من الصالة العلوية[1] وتقول لي: إنَّ هناك ضابطًا علويًا يأتينا بشكل متكرر ليشتري بيجامات رياضية. وكان الضابط يأتي ومعه أحد البعثيين من شعبة المدينة الحزبية، ويدفع عنه دائمًا. ثم تابعَت: لقد سقط هاتفه الجوال في

(١) كان لدى محمد ظلال المعلم صالتان في طابقين، الأولى للألبسة المتنوعة، والتي تعلوها للألبسة الرياضية.

غرفة الملابس، وخرج ولم يعد. فقلت لها: أقفلي الهاتف وضعيه في الدرج.

بعد انصراف العاملات أخذت الهاتف وصعدت إلى بيتي. قمت بفتح جوال هذا الضابط، ولم يكن التواصل إلا عن طريق الرسائل، قرأت الرسائل الواصلة لهذا الضابط، وأصبت بصدمة كبرى! رباه.. كيف للثورة أن تنتصر بوجود هذا الكم الهائل من العملاء والخونة؟ رأيت رسائل من مختلف مناطق إدلب، رجال ونساء وفتيات.

كانوا يتجسسون على الجيران وأهل الحارة، يراقبون تحركات من كان مطلوباً منهم للجهات الأمنية. ما هذه الحقارة؟ لماذا يفعل هؤلاء الأوغاد هذا؟ ألا يعلمون أنهم يرسلون كلّ من يشون به إلى السجن المؤبد أو إلى الموت الأكيد؟!

وقبل أن أغلق الهاتف فتحته على الأرقام الخاصة فوجدت رقماً أرضياً محفوظاً يحمل اسم (أختي أم أحمد)، فقلت لنفسي: جيد، سأتصل بهذا الرقم لأبيّن حسن نيّتي، ومن ثم آتي بفلاشة وأنقل الأرقام والرسائل. اتصلت بهذا الرقم عن طريق الهاتف الأرضي، لأن خطوط الجوال مقطوعة. فجاءني

من الطرف الآخر صوت رجل ولكن لهجته من إدلب. توقعت أن تكون اللهجة ساحلية كلهجة الضابط، وفوراً قال لي: نعم الهاتف لشقيق زوجتي، وقد أضاعه منذ مدة. أجبته: وجدته اليوم في صالتي.

قال بصوت حاد: إنّه مسروق، وأنا أحمّلك تبعاته. قلت: أنا من اتصلت بك، غداً صباحاً تفضل وخذه. أغلقت الخط وأنا متضايق من هذا الرجل، وأفكر بما قاله، فما علاقة أخي زوجَتِه بهذا الضابط؟ ولم أكد أنهي مكالمتي، وإذا باب بيتي يقرع.

خير إن شاء الله؟ فالساعة أصبحت التاسعة، والكهرباء مقطوعة، ومن سيأتيني في هذا الوقت المتأخر؟ فتحت الباب فإذا بالبعثي الذي يدفع للضابط ثمن ما يأخذ من الألبسة، ومعه شخص آخر يقول لي: نسي سيادة الضابط جواله عندكم في الصالة. قلت له: نعم، هناك جوالٌ ولكن صاحبه يقول: إنه مسروق.

فتوقف لحظة، وقال: هل يمكن أن أتصل من هاتفك الأرضي بالمعلم[1]؟ قلت: تفضل. دخل البعثي وصاحبه،

(١) لقب غير رسمي يستخدمه العسكريون ورجال الأمن لنداء من هو أرفع رتبة

واتصل بالمعلم مبتسمًا، وقص عليه ما سمع. قال له معلمه: أعطني صاحب الصالة، وبدون سلام أو كلام قال لي: أعطه الهاتف قبل أن أجعلك عبرة لمن اعتبر.

طار صوابي من كلامه، وغضبت أيما غضب، ثم أجبته بحدّة وبصوت مرتفع: وكيف لك أن تتكلم معي بهذه اللهجة؟ لتكن من تكون، لا أسمح لك أو لغيرك أن يكلمني هكذا. الجوال مسروق ولن أعطيه لك حتى تتفاهم مع صاحبه. تفاجأ الرجل من هذا الرد، والبعثي وضع يديه على رأسه، فهذا معلمه وبسلطته يصول ويجول، فكيف أتجرأ أنا عليه؟ ثم قال: تمام أعطني رقم الرجل وأنا أحل المسألة.

أعطيته الرقم وبعد أقلّ من دقيقتين اتصل الرجل صاحب الجوال بصوت خافت خائف قائلاً: والله يا أخي حصل هناك خطأ، الجوال ليس لنا أرجعه لسيادة الضابط!

فقلت له: سبحان الله! عندما كلمتك أوّل الأمر حمّلتني مسؤوليته وكنتَ أسداً كاسراً في وجهي، والآن تتكلم كالأرنب؟ إن أمثالك يشعروننا أننا نستحق كلّ ما حصل ويحصل لنا. سكتنا عن حقوقنا وتنازلنا عن كلِّ ما نملك

منهم.

لهـؤلاء الخنازيـر فأبدلنـا الله المذلـة وسـوء الخاتمـة. أنهيـت المكالمـة مـع الرجـل، وبعـد دقيقـة يتصـل الضابـط متحدثـاً لـي بصـوت هـادئ: هـل حلـت المسـألة؟ قلـت: حلـت تمامـاً. فشكرني مودعـاً.

عزيـزي القـارئ الكريـم! هـذه الصـورة البائسـة قـد تعطيـك فكـرة عـن تسـلط رجـال الأمـن علـى رقـاب البشـر، وفكـرةً عـن الخـوف الـذي يسـتحوذ علـى قلوبهـم مـن رجـال السـلطة، وكذلـك تعطيـك فكـرة عـن دنـاءة ضبـاط الأمـن، إذ كيـف يصغـر فيسـرق هاتفـاً لا يتجـاوز سـعره يومئـذ مئـة وخمسـين دولاراً. هـذه دولـة الأسـد وهـؤلاء هـم رجالـه الذيـن وصلـوا بسـورية العظيمـة إلى الخراب وقاع القهر.

* * *

اختطاف صحفية

الأحداث تتسارع وأخبار سقوط المناطق بيد الثوار وخروجها عن سيطرة النظام تترى. اشتعلت الكثير من جبهات سورية وأصبحت الثورة مسلحة، وأصبحت تستطيع أن تواجه قوات الأسد بقليل من السلاح. أما الشعب فقد انحاز أكثره للثورة.

وكان مِنْ بين من يسكن في جوارنا، قرب بيت أخي عبيدة، رجلٌ اسمه شكيب تركماني[1] يسكن تحت بيت أخي عبيدة وكنت أراه أحياناً في الحي وأسلم عليه كعادتنا من دون علاقة مباشرة بيننا، ولا أعرف عنه إلا أنه يعمل بالديكور.

وذات يومٍ يأتني أبو عادل نيربي[2] مسرعاً ويقول لي: شكيب ينتظرك على الهاتف في دكاني، فسألته: ومن هو شكيب؟ فقال: إنه جار أخيك. فقلت: آه، لقد سمعت أن

(١) أحد منسوبي الحزب السوري القومي الاجتماعي. أسس الحزب أنطون سعادة، وهو يؤمن بأن سوريا ولبنان وفلسطين والأردن والعراق وسيناء وقبرص والكويت هي «الأمة السورية».

(٢) صاحب متجر صغير في السوق قرب صالتنا الرياضية. قبل ثلاثين سنة كان نادلاً متطوعاً عند المدعو خالد غزال الذي يعد نفسه فوق جميع رجال السلطة في إدلب، لأنه كان من رجال رفعت أسد حينها.

هذا الرجل اختفى من حارتنا بعد أن علم الثُّوَّار أنه المسؤول العسكري في الحزب القومي السوري، وأنه يقاتل ويدافع مع النظام ويعتقل الأهالي. وقد حاول الثوار تحييده ولكنه هرب.

خرجت مع أبي عادل مسرعًا إلى دكانه وأنا أتمتم: خيراً إن شاء الله! وماذا يريد مني هذا الخائن الحقير؟ أمسكت سماعة الهاتف فسلم عليّ، ودون أية مقدمات قال لي: هل تعرف الصحفية زينة ارحيم؟ قلت: نعم. هي حفيدة خالي. نعم أعرفها. فردّ بأنها معتقلة لديه في بلدة كفريا[1]. تابعت حديثي مع شكيب متسائلاً: وكيف وصلت هذه الصحفية إليكم؟ قال: دخلت إلى الفوعة هي واثنان من الصحفيين الإيرلنديين بعد تطمينات من الـ (BBC) فاعتقلناهم، وهي الآن معي. ثم سأل: هل تريد أن أفرج عنها وأسلمها لك؟ قلت: بالتأكيد، فقال لي: مساءً ستجدني عندك، أقفلت خط الهاتف

(١) كفريا والفوعة بلدتان شيعيّتان تحيط بهما عدة قرى وبلدان كمعرتمصرين وبنش وطعوم ورام حمدان. حاول الثوار بشتى الطرق أن تأخذ هاتان القريتان الحياد إن لم يريدا الانضمام للثورة. ولم تنفع معهم المحاولة، فإيران لم تسمح لأي شيعي أن يبقى على الحياد، فحرب نظام الأسد على الشعب سوري هي حرب ذات صبغة طائفية، شارك فيها حزب الله اللبناني الشيعي، وأدخل معه الميليشيات الشيعية الأفغانية، ومليشيات القتل العراقية، إضافة إلى الدعم الإيراني.

وأنا غير مصدق.

قلت لأبي عادل: ما الذي جعل هذا الرجل يتصل بي أنا بالذات؟ وما الغاية؟ وماذا يريد؟ هل طلب فدية؟ فأجاب: والله لا أعلم شيئًا، فلقد سمعتُ كما سمعتَ أنت.

رجعت إلى الصالة واتصلت بخالة زينة، سألتها عنها. قالت: إنها دخلت الى سوريا عن طريق تركيا، ومنذ ساعات انقطع اتصالنا بها. قصصت عليها ما جرى معي، وطلبت منها ألا تخبر والدتها، وأن الأمر سيُحل في المساء.

وبعد ساعة جاءت خالة زينة هي وقريبة لي لتتابع الأمر عن قرب. انتظرنا حتى الساعة السابعة ولم يأتِ شكيب، وإذا بهاتف الصالة يرنّ، رفعت السماعة فإذا شكيب يتحدث، ثمّ يعتذر لعدم تمكنه من الخروج، وقال: إن سيارته تعرضت لرشقات من الرصاص عندما همّ بالخروج من قرية كفريا. وأقسم لي أن يأتي بها غداً إلى قرية فيلون ليسلمها لأحد الإعلاميين. قلت له: هل هي بجوارك؟ قال: نعم، فطلبت أن أتكلم معها، تفاجأت الفتاة من معرفتي بالأمر، وسألتها عن حالها فأخبرتني أنها بخير وأكدت ما قاله شكيب.

أيقنت أن شكيب صادق وأنه سيطلق سراحها. طلبت منها أن تصبر وغداً إن شاء الله سينتهي هذا الكابوس. رجع إلي شكيب وقال: ولكن سأقول لك شيئًا. قلت: تفضل. قال: سأكتب في تقريري أنها معنا، وهي عميلة لنا لأقدمه لفرع الأمن العسكري. قلت: لا مشكلة، اكتب ما تريد. المهم أن تطلق سراحها. وفعلاً في اليوم الثاني أطلق سراحها ورجعت إلى تركيا من فورها.

وقد استغربت هذا التصرف من شكيب، إذ أنه لم يطلب رشوة لقاء هذه الخدمة، وهذا ليس من عادة من يوظفهم النظام.

❊ ❊ ❊

رئيس لجنة المصالحة

استمر تردد شكيب إلى صالتي، ولا سيما بعد دخول الجيش الأسدي إلى إدلب. طبعاً بدأ يطلب مني أن أوصل رسائل إلى الثوار بشكلٍ غير مباشر، فصرت أسوّف وأماطل، إلى أن جاء يوم قال لي فيه: قل للثوار أن ينهوا الوضع ويسلموا أسلحتهم.

استهجنتُ الكلام، فكأنه يظن أني المسؤول عنهم. ثم قال لي: ما رأيك أن أضعك رئيس لجنة المصالحة في المدينة، ولك حرية اختيار أعضائها، والمعلم علي حيدر[1] هو وزير المصالحة الوطنية، وهو يحاول أن ينهي الوضع في سوريا. وتابع: هناك تطمينات من دول كبيرة بأن يصبح هذا الوزير الإسماعيلي رئيساً لسورية الجديدة، وإذا ما حصل فستكون أنت من أصحاب المناصب. سأتركك تفكر، وبعد ثلاثة أيام سأعود إليك، وأرجو أن يكون قرارك صائباً، فلا تنسَ أنت جالس في إدلب ووضعك غير مستقرّ، وعليك إشارات كثيرة،

(١) ولد بمصياف في محافظة حماة سنة ١٩٦٢م، سياسي وعضو بارز في الحزب السوري القومي الاجتماعي. عُيّن وزيراً للمصالحة الوطنية في حكومة أسد إبان الثورة السورية.

ويمكن أن تتخلّص من جميع الملاحقات حين تعمل معنا.

لم أعطِه جواباً مباشراً، غير أنهم لو وضعوا لي تاج المُلك على رأسي ما تخليت عن الثورة، ولا غدرت بأحد من أهلي وما زلت. قلت له: سأخبرك لاحقًا.

مرت الأيام الثلاثة ولم يأتِ شكيب، ثمَّ مرّ أسبوعٌ ولم يأتِ، فحمدت ربي شاكراً له آملاً أنه نسي الأمر. وفي اليوم الثامن جاءني أبو عادل على عجل ليقول لي: ألم تسمع ماذا حدث مع شكيب؟ قلت: لا والله، ما الذي حدث؟ فقال: منذ أسبوع تعرض لمحاولة اغتيال بتفجير سيارته، فنجا هو وقتل من معه. واليوم زرته في المشفى، ويرسل لك سلاماً خاصاً ويعتذر للتأخر!

اغتممت لاعتذاره، فقد بدا أنه لم ينسَ. تابع أبو عادل: هل تريد أن تزوره في المشفى؟ قلت: لا أريد أن يراني أحد معه، فقال: على كل حال سيخرج من المشفى خلال يومين ويأتي إليك. تمتمت: لاحول ولا قوة إلا بالله، أليس لدى شكيب هذا وحزبه العملاق غيري؟

وبعد يومين فوجئت بشكيب وقد أتى وليس به أذى،

بادرته: كيف حالك؟ الحمد على السلامة. فأجاب: أرأيت ماذا فعل ثواركم بي؟ قلت له: لو يعلمون ماذا تفعل لشكروك على جهودك. فقال وقد فُرِجَت أساريره: هذا ما أريده بالضبط، فأنا قادم إليك لتوصل لهم هذه الرسالة، وأسألك إن كنت قد أخبرتهم بأن يلقوا سلاحهم وأن صكّ العفو عنهم من قبل النظام جاهز فوراً، ومعلّمنا علي حيدر سيعطيهم الضمان الذي يطلبونه. فقلت له: وهل تراني أحمق لأقول لهم هذا الكلام؟ أتريد منهم أن يقوموا بإعدامي؟ وكنت حينها لم ألتقِ بأي قائد عسكري من قادة فصائل الثوار. فقال: ماذا تقترح إذاً؟ فقلت له: أقترح أن تُزال جميع الحواجز من مداخل المدينة، وتتوقّف الاعتقالات ويخرج المعتقلون، وأنا سأضمن لك ألا يكون هناك هجوم من الثوار على الجيش في المدينة.

فأجاب: والله هذا الطرح يمكن أن يُبحث ويُنْظَر فيه، وهو حلّ معقول. حينها أتتني الدهشة، فكلَّما حاولت أن أخرجه من الباب يأتني من الشباك. ثمّ أمسك هاتفه وحاول الاتصال. قلت: بمن ستّتصل؟ قال: بمعلّمنا! فوجئت به يكلمني وكأنّه ضَمِنَ ولائي له، وأصبحت من أفراد حزبه.

فقلت له: ولم ستتصل؟ فقال: سأفتح خطاً ساخناً بينكما، فيكون اتصالك مع المعلّم مباشرة.

أمسكت يده قبل أن يكمل الاتصال، وسارعت لأقول له: دقيقة! أرجوك، ما أعرضه ليس بالقليل، وهذا يتعلق بسياسة دولة. في البداية ناقشوا هذه المسائل فيما بينكم، وإذا وجدتم أنها قابلة للتنفيذ فسأعطيك أسماء عشرة معتقلين لديكم لتخرجوهم لنا من فرع الأمن العسكري كبادرة حسن نية. وإنني أقسم بالله أنه ليس في رأسي إلا اسم أو اثنان، ولم أكلم أحداً ولم أنسّق مع ثائر.

قلت هذا وأنا أنتظر منه أن يرفض، عسى أن يذهب وأنتهي منه ومن اللجنة ومما سيأتي خلف كل ذلك من المشاكل. فإذا به يقول: أمهلني أسبوعاً واحداً وستكون أنت رئيس لجنة المصالحة، وسيكون الوزير القائد علي حيدر معلّمنا، وابتسم ثم خرج.

هل يظنّني هذا المعتوه خائناً؟ وهل يظنّ أنّ عرَضاً قليلاً من الدنيا سيجعلني أبيع دماء الثورة والثوار؟ هذا المعتوه كنظامه لا يعرف الرجال، فهو يظنّ بالناس كما يظنّ بنفسه، فكُلٌّ عنده يباع ويشترى.

وبعد أن ابتعد قلت لنفسي: هل أترك البلد وأهرب من كل هذا؟ وقلت: لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً. انتظرت الأسبوع والأسبوعين ولم يأت شكيب وأتى موعد الذهاب إلى أمن الدولة حتى أحصل على ورقة التسوية الشهرية، ولكن ضباط أمن الدولة تغيروا فجيء بعميد نُصَيري، وأصبح المحققون فيه إما من النصيرية أو من الشيعة. أما أبو عبدو شاوي فقد هرب خارج البلد، والباقون قتلوا في معركة الخزانات، فقد تخلص النظام منهم[1].

توكلت على الله، وكنت وقتها وحيداً، فأخي عبيدة انتقل مع عائلته إلى مدينة أرمناز يوم تحرير السجن المركزي غَرب إدلب، وانسحبت قوات النظام من المنطقة الغربية كاملة باتجاه مدينة حلب، لأنّ ثوّار مدينة حلب بدؤوا بشنّ معارك ضخمة، وخسر النظام معارك ومناطق كثيرة، وبدأ جيش النظام يعاني من النقص العددي، فاضطر أن يسحب قواته من ريف إدلب الغربي بشكل كامل.

❊ ❊ ❊

(١) أرجح الظن أنه أرسلهم إلى معارك خان شيخون لعلمه بتواطئهم مع الثوار، من خلال تبرئة كثير منهم أو عدم زجهم في السجن.

اقتحام بيتي

يومها -وعند الساعة العاشرة، والمدينة غرقى بظلامها: فالكهرباء مقطوعة، وأصوات الرصاص والقذائف قد اختفت، وعم السكون المخيف- وإذا بباب بيتي يدق فحوقلتُ.

كان ولداي قد هربا من المدينة، وذهبا إلى بعض المعارف في الريف خوفاً من أن يعتقلهما النظام، لأنه عندما تحرر معبر باب الهوى من أيدي قوات النظام وجد الثوار اسمي واسماءهم على قوائم الاعتقال. وكذلك عندما حرر الثوار مُفْرَزة الأمن العسكري على طريق حلب الجديد عثروا على اسمي واسم ولَدَي على لوائح الاعتقال، فقمت بتهريبهم خارج المدينة، وبقيت وحدي.

بعد طرقات الباب فتحت فإذا بفتاة تلبس ملابس أهل الفوعة وتتكلم بلهجتهم تقول لي: أين زوجتك؟ قلت: وماذا تريدين من زوجتي؟ وسمعت صوت لهاث من معها وهو مختفٍ خلف الباب، قالت: لو سمحت دعني أكلّمها، فأشرت لزوجتي أن تضع حجاباً على رأسها فسارعت

وأخفت الحاسب المحمول، ثم جاءت وهي تقول: خير إن شاء الله؟ فإذا بهذه الفتاة تشهر مسدساً في وجهنا، ويثب من خلفها أحد عناصر الشبيحة وبيده بندقية كلاشنكوف، ويقول: قف مكانك يا حيوان!

ووجه بندقيته إلى صدري، وقال: نريد أن نفتش البيت. وبكل سكينة وهدوء أبعدت البندقية عن جسدي قائلاً: تفضل فتّش كما يحلو لك، ولكن لا توجه سلاحك إلى صدري، ثم يدخل الحيوان الصغير وكان شاباً لا يتجاوز العشرين من عمره ومعه مجموعة من الرجال، وتسبقهم المرأة وتدخل إلى غرفة أمي التي بقيت مستلقية وتحت فراشها أخفت زوجتي الحاسب الآلي، لأن فيه الكثير من فيديوهات المظاهرات وصور الحراك الثوري، وهذا الأمر من أخطر التهم التي قد تودي بحياة الإنسان. فتشوا كل الغرف دون أن أعلم عن ماذا يبحثون. قال سيدهم: ذهبنا إلى بيت أخيك فلم يفتح لنا أحد، فقمنا بكسر الباب ولم نجد أحداً فأين هو؟ قلت: ذهب منذ يومين إلى المزرعة وسيعود. قال: هل سيعود؟ قلت: بالتأكيد.

ثم أردفت قائلاً: أليس عيباً عليكم أن تروّعوا أمي

وزوجتي وبناتي الصغيرات يا رجال؟ ماذا تفعلون في البيت وماذا تريدون؟ قال: ألم ترَ أن الإرهابين اليوم هزمونا شر هزيمة واحتلوا السجن المركزي؟ قلت: وما ذنبنا إذا ما الإرهابيون قتلوكم؟ هل هذا سبب لتأتي إلى منزلي في هذا الوقت؟ وبدا أن هذا العنصر الشبيح جاء من قِبل كتيبة الخائن جهاد، وليس بطلب من فرع الأمن، فاعتذر الشاب وخرجوا إلى غير رجعة.

اتجهت إلى فرع أمن الدولة، وهذه المرة كنت خائفاً وحيداً أقرأ ما أحفظ من كتاب الله تعالى، إذ يبدو أن الأمر وصل معي إلى نهايته. اقتربت من مبنى الظَلَمة وأكل الحقوق وتخويف الناس. وصلت إلى فرع أمن الدولة، ومن سماه أمن الدولة فقد كذب فلا علاقة لهذا المبنى بدولة أو حكومة أو قانون ولا علاقة له بأمن أو أمان، فقد كان عليهم أن يسموه أمن رئيس العصابة أو أمن أكبر عميل مرّ بتاريخ سوريا.

وقفت على بابه، والأمر قد تغير كلياً عما سبق، أمرني حارس الباب بالابتعاد عن الباب الرئيسي مسافة عشرة أمتار، فاستجبت له وأنا أرمق هذا الحارس بقرف، ثمّ نظرت حولي لأرى أحد عشر شخصاً يقفون مثلي ينتظرون أن يؤذن

لهم بالدخول، وبعد وقت ليس بالطويل صرخ علينا الحارس أن ندخل الفرع. انصاع كلّ الموجودين للأمر، ثم أصدر الحارس تعليماته لنا ألا ننظر يميناً أو يساراً ونتجه مباشرة إلى غرفة المحقق، وهي الغرفة التي كان فيها أبو عبدو وكنا ندخلها فرادى، أما الآن فقد أدخلنا مجتمعين. ما هذا التكتيك الجديد؟ يا لذكاء العميد الجديد! أهكذا يتم التحقيق مع مجموعة من البشر في وقت واحد؟

وراء طاولة أبو عبدو رأيت شاباً حديث السن، لا يتجاوز الخامسة العشرين من عمره، تلقانا بابتسامة أحسستها كابتسامة الداعرات، وجلسنا متحلقين حول طاولته، وبدأ يحدثنا عن الوطن ومناقب السيد الرئيس، ويحدثنا ماذا فعل الإرهابيون بمدينة أريحا، وكيف أنهم أحرقوا البريد والهاتف، وكنت على دراية أنّ أسد وكلابه وأحذيته هم من أحرقوا المبنى.

بدأ يروي كيف أن الإرهاب دمّرَ وقتلَ واغتصبَ. ثم طلب منا أن نساعدهم في الكشف عن هؤلاء البغاة المخربين، وأعطانا رقم هاتفه حتى نتصل به في حال عرفنا شيئاً عن الإرهابيين. إلى هنا وأنا أمسك أعصابي كي لا أرد عليه أو

أفعل ما لا تحمد عقباه، أمام هذا الحديث الممجوج، المليء بالكذب والدجل، فهو لا ينطلي على الطفل الصغير.

ولكن أحد الحاضرين قام بأمر جعلني أفقد كل إحساس بالمكان أو الزمان، فقد أخرج هذا المنافق ورقة وطلب من المحقق أن يعيد الرقم ليدوّنه عنده، فما أن انتهى حتى قلت له: لقد ضحكتم علينا! نظر إليَّ مشدوهًا وقال: كيف؟ أجبته: إن الرئيس (وهذه المرة قلتها دون أن أضيف كلمة سيد قبلها ودون تعظيم)، الرئيس قد أعطانا ثلاثة إعفاءات، قال: بل أربعة إعفاءات. قلت: أربعة، وأنا أمامكم الآن أعترف أني قتلت وسرقت وحرقت وقدت الثورة ولم أترك شيئًا من الموبقات والمحرمات إلا وفعلته، ولكن الرئيس عفا عني، فلماذا لا تتركوننا وشأننا؟ ولماذا تحضروننا كلّ شهر إلى هنا؟

نظر إليّ وقد تفاجأ من كلامي، لأنه بالتأكيد لم يسمع مثل هذا الكلام أو الاعتراض في هذه الغرفة من قبل، وقال: لا تسئ لسيادة الرئيس، قلت: وما دخل الرئيس في كلامي؟ أنا ألومكم أنتم.

فأخذ يلفّ ويدور في الحديث، وبعد أن انتهى من موعظته

أردفت قائلاً: ومن ثمَّ لماذا تم فصلي من عملي في مديرية التربية وكنت معلماً لمادة التربية الرياضية؟ لقد تمّ فصلي في اللائحة الأولى بتوصية من المخابرات العسكرية، وتقديمي لمحكمة الإرهاب دون أن آخذ أياً من حقوقي المالية التي ينصّ عليها القانون شيئاً، ولي خدمة استمرّت أكثر من خمس وعشرين سنة في سلك التعليم.

قلت وقد فقدت أعصابي: وأمس الأول يأتي الشبيحة (ولا أعلم كيف سكت ولم يعقب على استخدامي لهذه الكلمة) ليهاجموا بيتي دون إذن حكومي ويعبثوا في بيتي؟ تفاجأ المحقق الأهبل مرة أخرى، وبدت عليه علامات الهزيمة، فالرجل كان يسعى ليعطينا درساً في الوطنية وحبّ البلد وتعظيم القائد، وإذا به ينقلب إلى متّهم، فقال بصوت منخفض: لا لا، هذا الأمر لا يرضي سيادة العميد، طبعاً هو جديد هنا في هذا الفرع، ولم يمض على استلامه المنصب إلا شهرٌ واحدٌ، ولكنه يحاول بكل جهده أن يكشف مواطن الغلط وأن يعطي كلّ ذي حق حقه. ثم قال: ما اسمك؟ أعطيته اسمي، فسجله على ورقة جانبية. إلى هنا والأمر ما يزال تحت السيطرة، ولكن كل من في الغرفة يحاول أن يتنفس

بلا صوت حتى لا يصبح متهماً، ولو رميت الإبرة لسُمع لها رنين. ساد الصمت للحظات والمحقق يحاول أن يجمع شتات فكره إلى أن استدرك نفسه وخرج من دائرة الاتهام ليحاول أن يعيد مسك زمام الأمور، وبدأ يتكلم ثانية عن حكمة (السيد الرئيس) وعن طيبته ومسامحته، ثم ووصف الثورة بالدعارة والثوار بالمارقين المخربين. وبعد أن أطال الشرح نظر إليّ وقال: ألستم تريدون الحرية؟ هذه هي الحرية التي تريدونها أعطاكم إياها السيد الريس.

وباندفاع أجبته: لا والله، لم نكن نريد هذا! أراد أن يردّ لي الصاع صاعين، فكيف يخرج من الحديث خاسراً وهو المفوه. قال بابتسامة صفراء حاقدة: وماذا تريدون إذاً؟ قلت: والله، خرجنا ببعض المطالب البسيطة التي لا تعيق حكماً ولا تهدد حاكماً ولا تغيّر نظام بلد، ولكنكم جابهتمونا بالحديد والنار والقتل، فأعاد ابتسامته الحقيرة بوجهي. آه كم تمنيت وقتها أن انتزع حنجرته وأرميها للكلاب. رد عليّ: اشرح لي أين رددنا عليكم بالنار؟ وأين قتلناكم؟

أجبته بسرعة البرق: أنا أسكن في شارع المشفى، رأيتكم وأنتم تقتلون ثلاثة أشخاص لا ذنب لهم ولا علاقة لهم بأيّ

حـراك أو مظاهـرة، رأيتكـم وأنتـم ترفسـون بأقدامكـم الطفـل والوالـد الذيـن أرديتموهـم قتلـى أمـام بـاب المشـفى، وأيضـاً أطلقتـم النـار علـى سـيارة لعامـل البلديـة فقتلتمـوه. لقـد حملتـه ورائحـة دمائـه مازالـت عالقـة بأنفـي إلـى الآن. حملتـه ودمـه مـا يـزال سـاخناً. لقـد وصلـت إليـه بعـد لحظـات مـن قتلـه، وبعـد أن غـادر الجنـود مسـرح جريمتهـم. قـال: ألـم أقـل لـك وأشـرح عـن الإرهـاب والإرهابيـن؟ هـذا عملهـم، قلـت: لقـد رأيتكـم كمـا رآكـم الكثيـر مـن أهـل حينـا، لقـد شـاهدوا الجنـود وهـم ينزلـون مـن السـيارات المصفحـة، ولـم يكـن في البلـد مـن يملكهـا إلا رجـال أمنكم فقط.

نظـر لـي في هـذه المـرة نظـرة لـن أنسـاها مـا حييـت، وقـال بلهجـة القاتـل المحتـرف: لا تتكلـم، انتهـت المناقشـة.

وكأن أحدهـم صـب دلـواً مـن المـاء البـارد فـوق رأسـي فجعلنـي أصحـو مـن سـكرتي وأعـاد الرشـد إلـيّ: هـل أنـا مـن كنـت أتكلـم هكـذا؟ هـل أنـا انتحاريّ جـاء ليهلـك نفسـه في أرض عـدوه؟ مـاذا فعلـت بنفسـي؟ وهـل سـيذكرني أولادي كثيـراً أم أنهـم سينسـونني؟ أقسـم بـالله لـو أن أحدهـم حدثنـي أنـه تكلـم في فـرع أمـن الدولـة مـع أحـد المحققيـن أو الضبّـاط بهـذا الشـكل

لقلت: إنه مجنون. ولنصحته أن يذهب إلى طبيب نفسيّ ليداوي نفسه.

ثم يدخل محقق آخر من الشيعة ومعه أوراق التسوية ويعطيها للمحقق الأول، الذي بدأ ينادي على اسم صاحب كل ورقة ويسلمها له ومع كل ورقة توزّع يخرج قلبي من صدري ويذهب إلى الطاولة ليرى هل لي ورقة مصالحة؟ أم أني سأعتقل؟ ويمرُّ وقت ثقيل وأنا أنتظر وأراقب الأوراق وهي تتوزع على الناجين، إلى أن يصيح باسمي ويرمي لي الورقة ثم يهز برأسه متوعداً إيَّايَ، بمعنى أن حسابك آتٍ لا محالة أيها الخائن المخرب الرافض لحكم البعث والكاره للسيد الرئيس المعظم.

ويأمر المحقق الأول الجميع بالخروج، وحين وصلت الباب الخارجي وخرجت من هذه البؤرة السوداء التي تضم أحقر بني البشر، لن أقول بأني ولدت من جديد فالولادة لا يشعر بها الطفل، بل سأقول: شعرت بأني متُّ ودفنت في قبر ضيق وأحياني الله الذي يحيي الموتى. ركبت سيارتي عائداً وأنا أتأمل مدينتي الواعدة، ما أحلاكِ يا إدلب! كنت قبل لحظات سأخسر النظر إلى أشجارك وإلى بساتينك، كنت

سأخسر هواءك وماءك. لم أصدق أني خارج أسوار الحقد الأسدي حرٌّ طليق بعد أن كنت بين أيديهم.

وصلت إلى الصالة وكأنني خرجت من حرب شعواء وأنا على قيد الحياة، وبدا أن أيامي أصبحت محسوبة في إدلب وعليّ الفرار، وقد ضاق الخناق وعليّ أن أجد حلاً، ولكن كيف سأترك المدينة ولي فيها بيت وعمل؟ وإن تدبرت أمر السكن فلمن سأترك البضاعة التي تملأ الصالتين؟ بضاعة بمئات آلاف الدولارات كيف أتركها وأذهب وأنا واثق أنه ذهاب لا عودة بعده. في هذا الظرف العصيب أخذت قراري فالروح هي الأغلى، وفجأة يعود شكيب التركماني بالظهور ومعه رجل يظهر في وجهه شقاء الدنيا كلها. يقترب مني شكيب ويسلم عليّ مسرعًا وهو يقول: سمعت أنك كنت في فرع أمن الدولة. قلت: نعم، قال: وحصَلَتْ مُشادَّة كلامية بينك وبين المحقق، وقد أخطأت بالرد عليه، وهناك أمر باعتقالك وسوقك مباشرة إلى دمشق، ولولا أن المحقق صديقي كنتَ الآن في حالٍ لا يعلمه إلا الله من التعذيب والأذى.

فسألته: وما المطلوب لأجل أن نصلح الخطأ وأعلن الندم

وأرجع إلى حضن الوطن والقائد والمخابرات؟ ردّ عليّ وفي عينيه خساسة الدنيا: تدفع لي مبلغ مئتي ألف ليرة، -أي ما يعادل وقتها ثلاثة آلاف دولار-، ثم آتيك بالتقارير التي كُتبت فيك، خاصة التي كتبها بك المخبر جهاد دويدري، فنمزقها أمامك وترجع صفحتك عند النظام بيضاء كبياض الثلج.

قلت: أنت تعرف أنه لدى في كل أفرُعِ الأمن تقارير تشي بي وتتهمني بأشياء خطيرة، وقد أخبرتني سابقًا بتفاصيل هذه التقارير، فكيف أضمن إن دفعت لك المبلغ ألا تأتي في اليوم التالي وتكلمني عن تقرير يشي بي لدى فرع آخر، فيصير عليّ كل يوم أن أدفع لك من جديد؟ فهل من الممكن أن تأتيني بكل التقارير الأمنية مجتمعة ومن كل الأفرع، فنمزقها ونرتاح من هذه المسألة؟

أجاب فرحًا: هذا هو الحلّ الأنسب. ثم أردف: ولكن، إن أنت هربت فلا تلومنّ إلا نفسك، سنحرق صالتك ونخرب بيتك. وأردف: سأذهب إلى مدينة حماة غداً وسأرجع بعد ثلاثة أيام لننهي هذه المسألة، قلت له: وأنا أنتظرك بفارغ الصبر.

وفي المساء صعدت إلى منزلي قائلاً لأمي: هل تذهبين معي إلى مدينة أرمناز غداً؟ ردت من فورها: نعم! حيث كانت قد ألحّت عليّ في الأشهر الماضية أن أغادر إدلب، فوافقت من فورها أن نخرج.

❊ ❊ ❊

مغادرة إدلب

وعند الصباح تركت تجارتي ومورد رزقي وبيتي الذي عشت فيه، وتركت مدينتي التي أحببتها وعشت أجمل أيام عمري فيها، وتركت عملي الذي بذلت لأجله عشر سنوات حتى نجح وازدهر، وتركت ورائي كل ما أملك، ثم ركبت سيارتي ومعي أمي وابنتايَّ الصغيرتين محار وسنا، وبقيت زوجتي من أجل أن ترتب أمر الصالتين والتجارة ثم تلحق بي بعد أيام.

سلكنا طريق كفريا الشيعية، وعند أول حاجز وبعد أن فتش العسكري ما نحمل من أمتعة، قال لي: هل أنت هارب من إدلب؟ قلت: وممن أهرب؟ إن والدتي بدأت تسمع مؤخراً أصوات اشتباكات، وقد ازدادت الاشتباكات ليلة أمس، فانتابها الخوف الشديد، فقررت أن آخذها والبنات إلى المزرعة القريبة، وإنني سأتركهم هناك وأعود خلال نصف ساعة.

لم يشكّ العسكري بكلامي، حتى أنه لم يأخذ هويتي ولم يسأل عن اسمي، ثم انطلقت إلى الحاجز الأخطر المقام

عند بلدة كفريا، فعند هذا الحاجز خُطف الكثير من أهل إدلب لأجل مبادلتهم بأسرى عند الثوار ممن أخذوا في الاقتحامات والمعارك.

نظرت من بعيد فإذا أحد زبانية النظام الطائفيين يجلس على كرسيه في مقابلة الشمس، وكان الوقت في نهاية الخريف، وبدا أن الأبله يحاول أن يدفئ نفسه بلا طائل، وحين وصلت السيارة إلى الحاجز سألته: هل من داعٍ أن أخرج من السيارة؟ فأشار بيده أن اذهب.

حقيقة في وقتها خالطني شعوران، لا أعلم أيهما الأصح: الشعور الأول هو شعور الأسى والقهر لأنني تركت بلدي مكرهاً مطارداً كسمكة أخرجت من مائها، أما الشعور الآخر فكان شعور فرحٍ لا يوصف، إذ أني خرجت من سطوة الأسد وكلابه وزبانيته ومخبريه، وأصبحت حراً.

خرجت لأتابع مجريات الثورة، ومن حيث أقيم في ريف إدلب أستطيع أن تابع عملي في الحراك الثوري. خرجت ولديّ رغبة عارمة أن أصرخ بأنني حرٌّ، وأن الطغيان انتهى، وهأنذا إنسان حقاً. نعم، أيها السادة! فمن رأى ليس كمن سمع.

الخاتمة

إن كثيراً من الأحداث التي عاينتها حاولت أن أكتبها هنا لتكون شاهداً على جزء من تاريخ ثورتنا المجيدة، فيعرف القارئ حقيقة جزار دمشق وطاغية الشام.

وليتذكر الشعب الأرمني بأن الشام فتحت لهم أبوابها على الرغم من أنهم خانوا دولتنا- الخلافة العثمانية- وطعنوها في خاصرتها، فقتلوا من قتلوا من المسلمين عرباً وتركاً وكرداً. وحين جاؤوا إلى أرض الشام عاملهم أجدادنا بأخلاق الإسلام، فتجاوزوا عما فعله الكثير منهم، ولم يفرقوا بين عرق وعرق ، ودين و دين. فكان ردّ الجميل من أولئك أن وقفوا مع أسد وزبانيته.

وليتذكّر أهل اليونان كيف أنهم لجؤوا إلى سورية أيام الحرب العالمية الثانية، وهم الآن يتفننون في إغراق قوارب اللاجئين والمهاجرين. وليتذكّر أيضاً شيعة لبنان وحزب الله وجيش التحرير الفلسطيني بأنهم لجؤوا إلى سورية، وقد أسكن شعبُ سورية الجميعَ في قلوبهم قبل ربوع الوطن، وأعطوهم الأمان والحماية.

وعندما هب شعبنا للمطالبة بحقوقه رد أكثرهم الإحسان بالإساءة، والمواطنة بالعنصرية المقيتة، ووقفوا مع جزار دمشق، حالهم كحال كثير ممن لا نسب ولا دين ولا وفكر يربطنا بهم. وسيأتي يوم يعترف فيه هؤلاء وأولئك بأنهم كانوا شركاء في ظلم السوريين وقتلهم وتشريدهم.

وإني لأومن بقول ربَّ العزَّة والجبروت ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] فالله الله في أهل الشام!

تمّ والحمد لله رب العالمين

❊ ❊ ❊

ملحق (١) محضر الجلسة

التوصيات، البيان الختامي

تحت عنوان : **التجمع التحضيري للمعارضة الوطنية للمثقفين والنقابيين في محافظة إدلب**

بتاريخ ٢٠١١/٩/٢٧ اجتمعت أطياف من المعارضة الوطنية للمثقفين والنقابيين في محافظة إدلب واتفقت على ما يلي :

١. دعم الحراك الشعبي السلمي في عملية التغيير والدعوة لاستمرار التظاهر السلمي للوصول إلى أهدافه .
٢. نشر الوعي والثقافة السياسية والاجتماعية في عملية التدبير السلمية وإدانة اللجوء للعنف من أي طرف كان .
٣. العمل على الإفراج عن كافة معتقلي الرأي، وجميع المعتقلين على خلفية الأحداث الأخيرة .
٤. الدعوة إلى انسحاب الجيش إلى ثكناته ووقف التغول الأمني .
٥. التأكيد على نبذ الطائفية والمحافظة على السلم الأهلي، ورفض استخدام السلاح في حل الأزمة .
٦. دعوة قوى المعارضة في الداخل والخارج إلى توحيد جهودها والانخراط إلى الحراك الشعبي وأهدافه المشروعة .

إن المجتمعين يتعهدون ويقسمون بالله العظيم أن يبادروا متحدين، إلى اتخاذ الإجراءات اللازمة لمواجهة أي اعتداء أو اعتقال أو إيذاء من قبل السلطة بحق أي من أعضاء هذا الاجتماع التحضيري وما ينتج عنه .

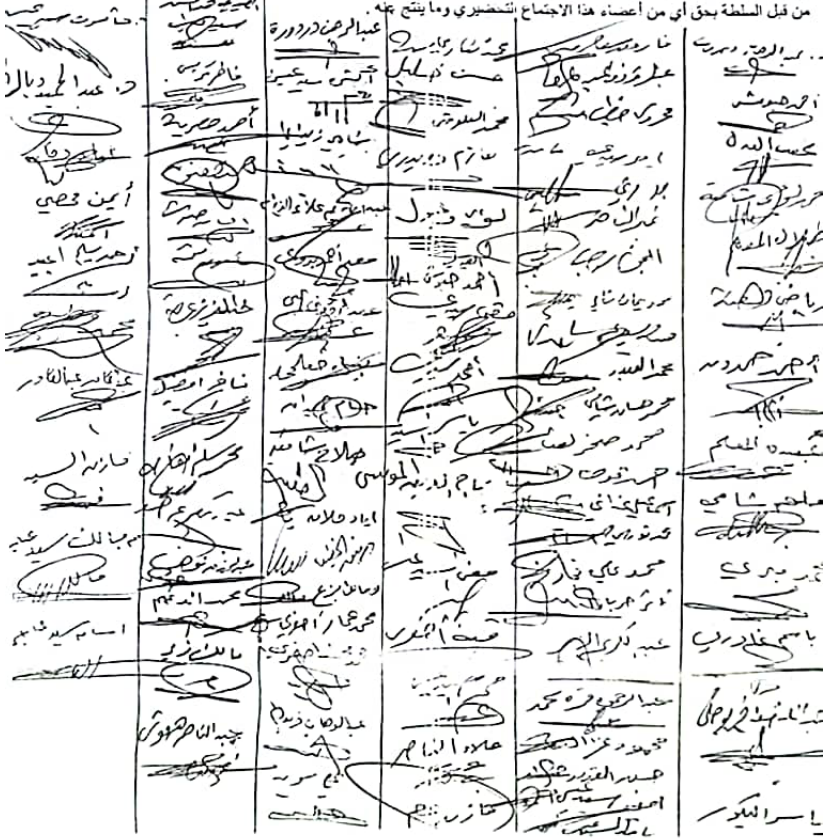

جدول رقم (١)

جدول المحتويات

الإهداء ٥
مقدمة المؤلف ٧
لا صَوتَ يعلو صَوتَ هُبَل ٩
مدينة إدلب ١٧
ما بعد المظاهرة ١٩
حين يعلو صوت البعث ٢١
الاعتقال ٢٥
البطل الصغير ٢٧
الجدران لها آذان ٣١
بحتري العرب ٣٣
كَفُّ اليدِ عن العمل! ٤١
وهَلَكَ الطاغية ٤٥
الربيع العربي ٥١
في شعبة التجنيد ٥٧
أحجار الدومينو ٦١
درعا! ٦٣
ريف إدلب ٨١
الشعب يريد إسقاط النظام ٨٧
أوّل شهيد ٩٣
المنتخب الوطني لكرة الطاولة ١٠١

مجلس قيادة الثورة ١٢١
جثث في براد المشفى ١٣٣
محاولة إشعال الفتنة ١٣٧
أصبح الصغار رجالاً ١٤٣
جمعة دامية أخرى ١٤٧
البعثة العربية ١٥٥
الجيش العربيُّ السُّوري ١٦١
مداهمة البيت ١٦٧
تسوية وضع ١٧٩
في فرع الأمن الجنائي ١٨٥
انشقاق ١٩١
المصائب لا تأتي فرادى ١٩٥
انشقاق معاون قائد الشرطة ٢٠٧
اختطاف صحفية ٢١٥
رئيس لجنة المصالحة ٢١٩
اقتحام بيتي ٢٢٥
مغادرة إدلب ٢٣٧
الخاتمة ٢٣٩

❊ ❊ ❊